لحظة انهيار

بهاء المري

الناشر : مركز ليفانت للدراسات الثقافية والنشر.

الإسكندرية .. مصر

أودونيس للثقافة والنشر .. ريف دمشق .. سوريا.

Levant.egsy@gmail.com

الاسكندرية ٤٤ شارع سوتر، أمام كلية الحقوق

هاتف / ٤٨٣٠٩٠٣ / ٠١١١٤٣٩١٦٠٠

اسم الكتاب : لحظة انهيار "قصص قصيرة"

المؤلف : المستشار / بهاء المري.

رقم الإيداع: ٢١٦٠٤

الترقيم الدولى: ٤ - ٢٣ – ٦٦٥١ – ٩٧٧ – ٩٧٨

التجهيزات الفنية :

كتابة كمبيوتر وتنسيق: المؤلف.

الطباعة: مطبعة سامي بالأزاريطة .. الإسكندرية

تليفون/ ٤٨٧٠٧٩٩ / ٠١٢٢٣٧٤٣٢٨١

لحظة انهيار
بهاء المري

بهاء المري

لحظة انهيار

قصص قصيرة

٢٠١٩

الإهداء

إلى حفيدتي

مَلَكْ أحمد بهاء

لنقرأ ما فاتَ

كان لانتشَار "كِتابها" ونَفادِ طبعاته الخَمْس دَويٌّ كانهيار جَليدٍ على جَبل هيمالايا، أصبح خبَرًا يوميًّا ذائع الصِّيت، تناولته برامج "التُّوك شو"، الصحف، المَجلاَّت، مواقع التَّواصل الاجتماعى، والبرامج الإذاعية.

كُنَّا صديقين لسنوات، ضرَبها شيطان الشِّعر ذات يوم فأصدرَتْ ديوانين؛ لم يتجاوز انتشارهما دائرة الأصدقاء والمعارف، ثم التقَمَتْها دوَّامة السَّفر للعمل في الخارج وانقطعَتْ أخبارها؛ حتى عادت للظهور بهذا الكتاب.

تعجَّبتُ لتحوُّلها من قَرْض الشِّعر إلى البحث الاجتماعي والتَّنظير فى مجال الأسرة، أثارت فضولي تلك "البُروبَاجَندا" التى جرَتْ حول الكتاب؛ وعنوانه المثير "كيف تحافظين على بيتك".

قرأتُ عنه فى الصُّحف مقالات عدَّة؛ قال أحدهم:

ـ إنَّ الكاتبة طرحَتْ عِدة مُشكلاتٍ؛ وتصدَّت لها بالتحليل وجابهَتها بآراء تُلقي اللوم على المرأة فى حال فشل زيجتها

وترى حَتمية خُضوعِها للرجل؛ وتحمُّل ما لا يمكن تَحُمُّلُه ولو كان مُجافيًا للعقل والمنطق.

ذلك الرأي أثار لدى بعضهم تساؤلاتٍ أخرى، قال أحدهم:

ـ هل ما يَقطع به كاتب من رأي؛ يُعبِّر بالضرورة عن قناعتة الشخصية؟ أم أنه يَتلمَّس ما يُرضي مزاج القارئ ويَعتنقه لأداء مُهمَّة بعينها؟ وتساءَل: هل يُفلح الكاتب حينئذ في إقناعنا بوجهة نظر ربما نعلم أنه لم يؤمن بها؟ هل نُصدِّقهُ حين يلبس مُسوح الرُّهبان وقلْبهُ قلب سِباع ضوارٍ؟

وقال آخر منتقدًا:

ـ كنتُ أظنُّها تنتصر لبنات جِنسها؛ وتُلقي تَبعة المشكلات على الرَّجل، ولكنها على العكس من ذلك حمَّلتهن المسئولية كاملة؛ مهما تعرَّضن لضغوط من أيّ نوع.

هاتَفتُها، هنأتُها بذيوع كتابها، سُرَّتْ لاتصالي وصمَّمَتْ على حضوري ندوة جديدة لمناقشة الكتاب؛ على أن أدير هذه الندوة؛ فقد تركوا لها حرية اختيار الضيوف.

لم أتردَّد، كانت المناقشة في قاعة مؤتمرات فاخرة، كان الحضورُ كثيفًا لم أتوقَّعه، شاشة عَرْض خَلْف المنصة يَظهر عليها صورتها وصورة الغلاف، حضورٌ مكثَّف لصحافيين ومراسلي قنوات فضائية ومصورين.

قدَّمَتُ موجزًا عن الكتاب، فكرته، وما تراءَى لي من قراءته، وكانت المساحة الأخيرة من الوقت لمناقشات الحضور؛ على أن تكون مكتوبة ضبطًا لإيقاع الندوة، وعلى أن أدعو السائل لإلقاء سؤاله بنفسه.

انهالت الأوراق المطوية تحمل أسئلة مُتعدِّدة، رتَّبتُها وفق أهميتها، كان أبرزها سؤالا هامًا استوقفني، أثار في نفسى لقطاتٍ لمواقفَ عشتُها شخصيًا معها؛ أثر خلافها مع زوجها الأول؛ لم يَمحُ الزمن تلك المواقف من ذاكرتي.

انبرَت شابة ثلاثينية تنتقد ذلك اللَّوم الذى كالته الكاتبة على المرأة؛ وإلقاءها تبعة المشكلات الأسريّة عليها، واستدركَتْ تسألها:

ـ ماذا لو أني لم أعد أحتمل استمرار الحياة مع زوجي؟ هل يمنعني وجود أطفال من حقي فى حريتي؟ وماذا لو كُنتِ مكاني؟

توجَّهْتُ إليها لتُجيب، لمحْتُ امتقاع لونها، كانت دقَّاتُ قلبها هي أعلى صوت أسمعهُ فى المكان، ارتباكٌ لحظىٌّ انتابَ حركة يدها وهي تمدُّها لتأخذ مِنِّي "المايك".

فى ومضةٍ كالبرق دار فى ذهني شريط الذكريات، تذكَّرتُ للتوِّ حين أعيتني وآخرين من أهلها الحِيَل؛ فى أن نُثنيها عن طلب التطليق، أراد زوجها أن تتفرغ لطفليها، وأرادت هي العمل الصحفي المتواصل، وطريق الشعر .. قالت حينذاك :

ـ لن يُجبرني أطفالي على تَرْك ما أحبّ؛ ولا التضحية بحريتي وأضافت: ولِمَ إذًا شُرِّع الطلاق، كان قرارها إمَّا أن تَبقَى على حريتها؛ وإمَّا أن يُطلقها؛ عجَزْنا عن التوفيق بينهما؛ فطلَّقها.

تَمالكَتْ لتُخفي ارتباكها، أدرتُ وجهي قليلًا بعيدا عنها؛ ولكنَّ الفضول تملَّكني؛ فعدتُ إليها، رمقتُها بلحظي؛ فإذا بلحظها يرمُقني، تقابَلتْ أطراف أعيننا، زاد ارتباكها، تظاهرَتْ بالثبات، أجابَت فى اقتضاب:

ـ يجب التَّحمُّل مهما كانت الأسباب؛ لا سيما فى حال وجود أبناء.

انفرجَت شفتاي عن ابتسامة لم أستطع حَجْبها، تذكَّرتُ ما قالتهُ لي حين دعَتني لإدارة الندوة؛ من أنها على أثر تلك الخلافات القديمة؛ أعادت ولديها لمُطلقها حين بلغا الثانوية العامة؛ وتزوَّجَتْ من غيره فى الخارج، ولَّما ضيَّقَ الأخير عليها الخِناق؛ لم تحتمل العيش معه وطُلقت منه هو الآخر.

أعادتْ ليَ المايك، عُدْتُ لأنظرها؛ فإذا بها أطرقَتْ، قلتُ أخاطبها:

ـ لم يزَلْ الشِّق الثانى من السؤال قائمًا، ماذا لو كُنتِ مكانها؟

سرَتْ بين الحضورين همهمةٌ أعقبها ضِحكاتٌ خفيفة، بعَين مُتلجْلجةٍ خَجْلى رمَقتني واجمةً؛ مدَّت يدها لتضبُطَ نظارتها من فوق النقاب الذي ارْتدْتهُ حديثًا؛ وأجابَت في إشارة إلى إجابتها السابقة نقلاً عن الكتاب:

ـ لِنقرأ ما فات!

بَوح

"لا أُنكرُ ذَكاءك ولا تُنكرين ذكائي، ولا أُنكرُ ما اعتراكِ نفسيًّا وجَسديًّا؛ لَمَّا وطِئْتُ – إلى جوار الصحافة – بعض عتَبات الأدب؛ وكثُرَت صداقاتي، وصار لي بعض مُعجبين وبعض مُعجبات.

تظاهرْتِ فى البدءِ بعدم الاكتراث، وشيئًا فشيئًا غلَتْ مَراجِل الغيرة فى عُروقِكْ، وبدَت على تصرفاتك علامات احتراق أعصابك، وراح شرَر الغضب يتطاير من عينيكِ.

تجاهَلْتُ ملاحظاتي لكِ حتى لا أضع من تحتها خَطًّا، أو قولي ربما لأُقنعَ نفسي؛ أنَّ ما يعتريكِ ليس سببهُ ما وقَر فى يقيني، خَشيتُ بَلْورتها على هذا النحو، وربما خِفتُ من جَعْلها موضوعًا إنْ فتحناه سيكون من الصعب إغلاقه.

وجدتُكِ تهرعين إلى هاتفي كلما قُمتُ من جواره لسببٍ ما، وإذا عُدتُ قبل الوقت الذى ظننتِ أنِّي سأستغرقهُ تحَجَّجتِ بأن رصيدك قد نَفِدْ، وفى أحيانٍ أخرى كنتِ ترمين

بطرفكِ فى محاولةٍ لالتقاط "كود" فتحِه ولكن عبثًا حاولتِ الوصول إليه.

لم يهدأ لكِ بال، وصار جليًّا أنَّ الأمور قد تطورت إلى حدِّ الإعياء الجَسدي، وليس كما كان باديًا عليكِ إعياءً نفسيًا، بل تفاقمَت فصِرتِ تتابعينني لحظةً بلحظة؛ إذا ما غادرْتُ البيت، وتُحاولين استنباط الأجواء التى تحيطني ونحن نتحدث معًا، وإذا ضرَبتُ لكِ موعدًا لعودتي؛ أو حدَّدْتُ لكِ شخصًا سأقابله، حاولتِ جمع معلوماتٍ عن الأمر بطريقتكِ الخاصة لتستوثقى بنفسك.

وزدْتِ الطين بلَّة حين رُحْتِ تُفسِّرين أمورًا بعينها تفسيرات لا تحتمل عقلاً ولا منطقًا، وكانت جميعها تسير فى طريق واحد، هو شكوككِ فى وجود أخرى فى حياتي.

وكانت الطَّامَّةُ الكبرى؛ حينما دفعَكِ شيطانك إلى حد مُراقبتي، داعبتني ذات مرة؛ واعترفْتِ أنَّ صديقةً لكِ شاهدَتْني فى فندق هيلتون الذي أخبرتُكِ من قبلُ أنَّ لي فيه

لقاء، فماذا لو لم أقل لكِ قَبلها؟ كيف كان سيصير حالنا؟ وهل كنتِ ستُصدقينَ أنه مجرَّد لقاءٍ ذي صلة بكتاباتي؟ لا أعتقد ذلك.

هل تعلمين كم انزعَجْتُ؟ كم حزنتُ؟ ليس لِوقْع الدُّعابة، وإنما لما صارت عليه أحوالك، حينئذٍ تيقَّنتُ أنَّ حالتك صارت مَرضيَّة، وليس مجرد غيرة فحسْب.

قَطعًا، أعرفُ الأسباب، ولكن ماذا تفيدني وقد عزَّ العلاج، ترَيننني اللعبة الخاصة بك كالأطفال، لا تريدين أحدًا يقترب منها مُجرَّد الاقتراب، فمنذ شبَبْتِ عن الطَّوق لم تَجدِي أمامكِ إلاّي، كنتِ طفلة حتى بعدما جاوزتِ سن الطفولة القانوني بعامين، وفجأة تجدين نفسك زوجتي التي ليس أمامها ـ ليلَ نهارٍ ـ سواي، واستَمرَّ معكِ الإحساس بالطفولة حتى الآن، وبقيتُ عندك اللعبة المملوكة لكِ وحدك؛ والتي ليس لأحدٍ الاقتراب منها، مجرد الاقتراب.

بدأتُ فى التصريح لكِ بحقيقة الأمر لتفهمي وتَعِي؛ أنَّ ما يدور ليس تغفيلاً لكِ أو غشًّا، وإنما هو مجرى عادي لطبيعة عملي، وكيف لا وأنا لا أغادر مكتبي وكُتبي وأوراقي إلا لساعات النوم؛ أو لقضاء الحاجيات الضرورية لمعيشتنا؟ وكيف لا وأنتِ تعرفينَ كم هو حُبي لكِ، كما تعلمين يقيني برفض الزِّيجة الأخرى ما دامت ليس لها من مُبرر، بل مبرر قوي يبلغ حدّ أنْ ليس منها فِكاك؟.

ولكن ليس كل ما يتمناه المرء يدركهُ، لم أستطع تبديد أوهامك، لم أفلح فى تشتيت ظنونك، حتى كانت مِنكِ حيلةٌ أخرى ماكرة، بل قاسية، استشعرْتُ وقوعها؛ حينَ لمعَت عيناكِ أثناء حديثٍ كان يدور بين آخرين كنَّا فى حضرتهم وكانوا يتحدثون عن نوع خاص من الهواتف النقالة؛ إذا ما أُنشيء من خلالهِ "إيميل" تَمكَّن من يستخدم هذا الإيميل؛ من فتح الهاتف فى أي وقت وهو فى يد صاحبه؛ وذلك لَمَّا سُررتِ بما سمِعتِ؛ ورُحتِ تناقشين وتناقشين الأمر باهتمام بالغ.

صدَق حَدْسي، أهديتِني إيّاه، ولم تغِب عن فِطنتي أسبابَ هذا الإهداء، فلماذا وأنا أحوز آخرَ لا يقل عنه كفاءة؟ فطِنتُ ساعتها للخدعة التي كنتُ أتوقعها.

لستُ أدري لماذا تناسَيْتِ ذكائي، ألا تذكرين أنِّي كنتُ حاضرًا الحديث عن ذلك التليفون الجاسوس؟ أمَا كان الأجدر بكِ ترتيب حيلة أخرى أشدِّ التواءً؟ أو سلوك سبيل آخر أقل فجاجَة؟ ولكنني عقدتُ العزم على مجاراتِك.

قلتُ سأذيقكِ من الكأس الذي توهَّمتِ وجوده؛ ورُحْتِ تتعاملين على أنه هو الواقع الذى به تؤمنين.

كنتُ أكتبُ أحداثَ قصةٍ رومنسية، أُعجِبَتْ بها إحدى الناقدات المخلصات، أثنَتْ كثيرًا على الحوار؛ ولكنها اقترحَت فيه بعض تعديلات، وعند هذا الحدِّ لم أكُن قد استعملتُ هاتفكِ الجاسوس بعد، وهُنا لاحت لي فكرة ماكرة، بل قولي راودتني فكرة خِداعها وخداعِك؛ لأرى ردّ فِعلك.

اقترحْتُ على الصديقة تَصَوُّر أنَّ البطل يحدثها وأنها ستتبادل معه الحوار، وذلك انطلاقًا مما أحسَّته من قصور فى تعبير بطلة القصة عن حُبها؛ بما يتناسب مع حب البطل، وبالفعل بدأنا نتبادل الحوار على هذه الهيئة من خلال جاسوسِك الجديد، فيبدو الأمر للقارئ أنه حُب شخصي بين من يتبادلان هذا الحوار.

كنتُ أعلم أنكِ تتجسَّسين، وإذا بالقيامة بعد حوار البطلين تقوم، فقدتِ السيطرة على أعصابك، فقدتِ حِلمك وعقلك، ثُرتِ ثورةً عارمةً؛ كادت أن تُدمِّر كل شيء، قُمتِ بتعنيفها أيما تعنيف، لم تَفهم هي شيئًا من ثورتك ولا أسبابها قالت لكِ: راجعي ما قبلها من رسائل وستفهمين، ولكنها لم تكن تعلم أنَّ الاتفاق على هذا الحوار كان من خلال التليفون القديم، وليس من التليفون الجاسوس.

فشَلْتُ فى إقناعِك، ولم تستطع الصديقة زَحزحتكِ عما اعتقدتِ فيها، تخاصَمنا، صِرنا غريبين فى بيتٍ واحد؛ انفرَد كلٌ مِنَّا بغرفة وكأننا فى بنسيون، اقتنعتُ فى قرارة نفسي أنَّ يَسْتمر الحال على هذه الحال.

امتدَّ الخصام بيننا شهرين كاملين، ولكن خِصامكِ كشفَ لي عما يكمُن فى نفسي؛ وما يختلج قلبي من أمور كنتُ أظنُّها عادية.

ما كنتُ أحسبُ أنَّ غيابكِ عنِّي وأنتِ فى معيَّتي كالعيش فى زنزانةٍ على نحو انفرادي، وأنَّ العيش بدونكِ كم هو أليم اكتشفتُ أنَّ الهروبَ منكِ لا يمكن أن يكون إلا إليكِ، وأنَّ الملاذَ لي؛ لا يمكن أن يكون إلا بكِ.

وجدتُني مثلَ مُدمن المخدرات؛ مهما أنهكَتْه لا يسلوها، يعود إليها؛ وربما عَودٌ أكثر نَهمًا وأشدُّ شراسة، كالقارئ أو الكاتب، كم تُرهقهُ القراءةَ والكتابةَ وتُجهد عينيه وذهنه؛ ولكنه لا يسلوها، يعود إليها أكثر شوقًا وأشدَّ نَهمًا، فأنتِ إدماني وأنتِ قلمي وأوراقي.

لم أعد أحتمل بُعدكِ فى قُربكْ، لم أقوَ على عدم وجودكِ فى وجودك، ولا غيابكِ فى حُضوركْ، هل تشعرين بما أعاني؟ ألم يُحدِّثكِ قلبكِ عن آلامي؟ "عُودِي لكى تَعودَ إلىَّ رُوحي".

كان هذا ما بَثَتهُ أوراقي في حالة إحباط قاسية، فهي أصدَقُ مَن أُحادثه، وأكثر من يُصغي إليَّ، كتبتهُ وكان لم يزل على مكتبي.

لستُ أدري لماذا دخَلَت غرفة المكتب بعد هذه القطيعة هل كانت تشعر بافتقادي؛ فدَخَلَتْ تتلمّس في الغرفة آثاري؟ أم أنها عادت للتجسُّس من جديد؟

أبصرتُها من نصف فتحة الباب، وهي جالسة إلى المكتب تمسك بالأوراق؛ وعبراتها تنسابُ في صمتٍ على وجنتيها؛ وابتسامة رقيقة ترتسم من تحت الدموع على شفتيها، دموع وابتسامة، غريبٌ ما رأيتهُ؛ ولكنه كان مُريحًا لي.

فجأة تجدني أمامها، هبَّت واقفة كأنها مذعورة، كانت تكتُب شيئًا ما في آخر صفحة، أمْسَكتُ بالورقة؛ فإذا بعبارة "وصَل كتابكم الذي كثُرَ تفصيله وقَلَّ تحصيله .. أنوثتي تتطلب رجولتك التي نسيتها فى عمَلك، وتَعدُّدُ الزَّوجات ليس من شِيَم الرُّجولة".

لم أع إنْ كُنتُ في حلم أم في واقع، لم أعرف أنِّي خارج الحلم؛ إلا حينما اتَّسعَتْ الابتسامة؛ واقتربَتْ مِنِّي تُعانقني بحنانٍ بالغ، خالطَتْ دموعها قطرات النَّدَى التي اكتَنفَها عبَقًا أُنثَويًا مُخدِّرًا؛ وهمسَت فى أذني:

ـ وأنا أحبُّكَ أكثر.

أُنوثة بائسة

وزّعَتْ الشموع المُعطَّرة في أرجاء الصالون؛ الذى يَصْدحُ فى فضائه مُوسيقَى شهرزاد - لريمسْكي كورساكوف - والعابق برائحة الوَرد، اعتنَتْ كثيرًا بزينتها وملابسها، حاولَتْ القَفز فوق الدَّقائق في انتظاره، ساءَلَتْ نفسها :

ـ متى سيأتي؟

قبولهُ دعوتها على العشاء في بيتها؛ جعَلتْ قلبها يخفق بزيادة، تذكَّرت مداعباته لها في أثناء العمل؛ وهي تطلبُ له مشروبًا ساخنًا، تهكَّم عليها حينئذٍ؛ لأنها لم تَدْعُهُ إلى طعام قَطْ، ضحِكَت يومها كعصفورٍ حبيس؛ فتحوا له باب القفص فى غفلةٍ من زمن.

دعتهُ لزيارتها، كانت وحيدةً بعد وفاة زوجها وهِجرة أبنائها، تاركين لها وحدةً وصقيعًا.

قطعَتْ الصالة مِرارًا بخطوات مُتوتِّرة؛ من وإلى النافذة، عيناها تنتقلان بين ترتيبات العَشاء الذي أعدَّتهُ بصبر، إلى

الشموع، إلى الـورود، ثـم تُطـالع المـرآة؛ تُـدقِّق في مظهرهـا وفستانها شبه العاري، تبدو كما لو كانت في الثلاثين لا أكثر.

تَسْـمع جـرَس البـاب، يُفلِـتُ قلبهـا دقَّتـين، انبهـاره بمظهرها كان واضحًا، غازَلها مُداعبًا كعادته، أسـبَلت عينيهـا دلالاً.

تناولا الطعام وأعقبَـا بالتَّحليـةِ ثـم بالشـاي، جلـس في مقعد ذي مسندين؛ وجلسَتْ هي على الأريكة الواسعة تتوقّع انضمامه إليها، إشارة لم يفهَمها.

فى جُرأةٍ مجنونة دعَتهُ ليجلس بجوارها، ارتبكَ لحظـةً ثـم انصاع لطلبها، تذكَّرَتْ وصفهُ لنفسه بأنه وُلِدَ كهـلاً، لم يعِـش طفولة ولا مُراهَقة، ولم يكن لـه أيّ بـاع مـع الجـنس الآخـر، ابتسَمَتْ مُشجِّعةً له.

لم يبدُ عليه أنّه فهم تشجيعها، كان متوترًا كَقِـطٍّ حبـيس، قطرات عرَق خفيفة تعلو جبينه رغم برودة التكييف.

تأكّدَتْ من تأثُّره بها، عِطرها الذي اختارته بتأنٍّ، فستانها المكشوف، زينتها المَعْني بها، كل هذا يقول: هَيْتَ لك.

شفتاها على بُعد سنتيمتراتٍ قليلةٍ من شفتيه، يغيبُ وعيهُ بين العِطر المُسْكر والقُرْب الحميم، لحظاتٌ ينزلق فيها وعيهُ ويبادلها قُبلة.

رائحة الفراولة في أحمر الشفاه تصفعهُ بقوَّة، الفراولة فاكهة زوجته المُحبَّبة، يَرتعدُ مُبتعدًا كمن لدَغهُ ثعبان.

تهمس:

ـ أحببتكَ، لن أُكلِّفكَ شيئًا؛ ولنُخْفِ الأمر عن زوجتك.

تُغمِضُ عينيها وتسبَح فى حُلم جميل، يُعانقها، يضمُّها إليه بقوة، حرارة أنفاسه تَلفحُ وجهها، يمنحُها الشَّوق الذي طالما كانت تحلمُ به.

تَسمَع الباب يُصْفُقُ بشدَّة، تَفيقُ من الحلم، لم تُصَدِّقُ أنها وحيدة، ثم تَغرق من جديدٍ فى حُلمها الأبدي.

ذُكورية امرأة

ترفضُ أن تَستضيفها إحداهُنَّ بعد مرَضها، ترَكْنَ كل ما وراءَهُنَّ وتجمَّعْنَ من حولها، مهما قدَّمْنَ لها لا يساوي طلْقةً واحدة من طَلْق الولادة، يُؤمِنَّ بذلك ويَعمَلنَ به، أمَّا هو فلم يعبأ بها من قبل، ولا بمرضها لاحقًا.

يَمرُرْنَ سريعًا ببيوتِهِنَّ لقضاء الضروريّ لأبنائهن، ويَعُدنَ فورًا إليها، تسأل إحداهُنَّ الأخرى سؤالاً تعرف إجابته:

ـ ألم يأتِ أخوكِ حتى الآن؟

تنفعلُ الكُبرى غاضبةً :

ـ كُفِّي عن هذا السؤال، فقد أعيانا الاتصال به، لا تقولي: أخونا، ثم تنحدر دموعها فى صمت.

تتلقَّفها أخرى بمثل ذات الغضب:

ـ تَعلمين تَخلِّيه عنها منذ البداية، نزَح إلى البندر بزوجته وأبنائه بدونها، ولم يزُرها فى السنة إلا مرَّة أو مرَّتين، وما جدوَى حضوره وقد اشتدَّ بها المرض، وإنْ حضرَ فلن تعرفه.

يقطع أنين هذا الحزن حضورُ جارتهم المُسِنَّة؛ صديقتها المُقرَّبة منذ كانتا طفلتين، تلمح فى عُيونِهنَّ دمعاتٍ تترقرق:

ـ ما لكُنَّ يا بنات تَبكينَ هكذا؟ الموتُ علينا حق.

وجدَتْها إحداهُنَّ فرصة لتُفضفِض، تحكي لها عن عقوق أخيها، عن تدليل أُمِّها له فى صِغره، وتفضيله عليهن، عما أعطتهُ من روحها وجسمها حتى صار مُهندسًا كبيرًا، عن دَفْن أحزانها فى صدرها؛ وهي تتلمَّس له العُذر بعبارة "الغائب حُجَّتهُ معه" ثم أردفَت:

ـ كانت تعمل أجيرةً؛ ولم تشأ أن يَعمل كأقرانه عند أحد، لم نُرِدْ منه يا خالة مالاً على الرغم من وَفْرته لديه، فقد تَضامَنَّا معًا فى نفقات علاجها، ولكنْ ما يؤلمنا إحساسنا باشتياقها إليه، وكثرة سؤالها عنه؛ حين اشتدَّ عليها المرض، وعدم اكتراثه؛ بما نُبلغه عن حالتها.

تلتقط منها أخرى طَرَف الحديث :

ـ تَصوَّري يا خالة؛ وهي تسألنا عنه منذ أيام؛ قُلنا لها دَعكِ منه، فهو ليس أخانا، فغضبتْ غضبًا شديدًا ودافَعتْ عنه قائلة :

ـ صحيحٌ أنا زعلانة منه؛ ولكنْ قلبي لا، أكيد مشغول، هو السَّند لكُنَّ يا بنات، لا تَقُلنَ هذا، ولا شأن لكُنَّ بما بيني وبينه، هو حبيبي، لا أنسَى السندوتش أبدًا، ربنا يُطيل في عمره، لا تكرهوه، ثم غَصَّتْ بالبُكاء وراحت في غيبوبة لا تزال إلى الآن واقعة عليها.

هزَّتْ العجوز رأسها وهي تنظر فى لا شيء بعينين ساهمتين، وحدثَّت نفسها :

ـ عَجبًا لكِ يا دنيا، حتى بعد أكْلِها السندوتش ؟!

نظَرَتْ البناتُ إلى بَعضِهن؛ اتسَّعَتْ عيونهن؛ صِحنَ في آنٍ واحد يسألنَ العجوز:

ـ ما قِصَّة السندوتش؟ ما حكايته يا خالة؟

استمرَّت تهُز رأسها في صمَتتٍ ولم تُجب، ألحَحْنَ عليها، قالت إحداهُنَّ:

ـ أرجوكِ يا خالة، أريحي قلوبنا، ما معنى هذا؟ قالتها أمّي مِرارًا؛ وكنا نحسبُها خَطْرفَة المرض.

تحت ضغط إصرارهنَّ قالت بصوتٍ مُرتعشٍ تّهدَّج بالبكاء:

ـ كانت أمُّكُنَّ لا يعيش لها أبناء، ماتَ لها ثلاثة قبل أخيكُنَّ هذا، ذلك من ثمانين سنة، كانت أيام جَهل يا بناتي وقِلة عقل، تطوَّعَتْ كلُّ مَن تَعرف وصفةً تَقيها مَوت مَن تلِدْ، مَن نَصَحتْها بشَراب المُرّ، ومَن نصَحَتها بالجلوس في المقابر في عِزِّ الليل، حتى قالت لها إحداهُنَّ إنَّ لديها وصفة مُجرَّبة مع قريبةٍ لها وعاش ولدها، وأقسمَتْ أنَّ هذا قد حدثَ بعد أن أكلَتْ من بُراز من ولَدَتْهُ.

كنتُ حاضرةً هذا اللقاء، تَعجَّبْتُ لغَرابة قولها فَنَهرتُها، ولكنْ أمُّكُنَّ لم تُكذِّب الخبَر، قالت دعيها تُكمِل، فطَعمُ هذا مهما بلغَ لا يساوي طعْم مرارة ثَكْل الوَلدْ، ثم جاءت به في حِجْرها تنتظر، وجعَلتْ جزءًا من برازه فى سندوتش وراحت تلتهمهُ وهي نَشْوَى دون مَضَض! هذه يا بنات حكاية السندوتش.

أجهَشنَ بالبكاء، أزاحت كُبراهُن عبرات انحدرت من عينيها على خدَّيها، وتَوجَّهتْ إليهن بصوتٍ حاد النَّبرَات:

ـ ألم أقل لكُنَّ قبل اشتداد المرض، أن نُراجعها في أمر الدار التي باعتها صوريًا، وصدَّقَت أنه سُيعطينا مقابل أنصبتنا؟

روبٌ وجلباب

حين يَشرد؛ تتمثل أمام ناظريه صورة والده وهو مَحنيٌّ في الحقل يعمل أجيرًا، وصورة الأمِّ وهي تُتاجرُ في عدد قليل من الدجاج الأبيض؛ تبتاعه من صاحب المزرعة التي يعمل بها والده؛ ولَّما تنتهي منها تبتاع غيرها وهكذا؛ فيفيق على قُوةٍ داخليةٍ تجعله يزيد من فترة حبسه الانفراديِّ الذي فرضهُ على نفسه مع كُتبه.

كانت صورة شقائهما تؤلمه، ولكنَّ فرحتهما بتفوقه كانت تُهدِّئ من روعه، كان يراه البلسم الذي يداوي فى نهاية كلّ عام بعضًا من جراح شقائهما، فعزم على استمراره تكريما لهما وسبيلاً ليحمل من خلاله بعضًا من أعباء تربية إخوته الخمسة.

يُدركه أحدهم في أثناء وقوفه أمام باب الكلية في انتظار أتوبس النقل العام، يدعوه إلى توصيله بسيارته فيرفض؛ وبعد إلحاح يوافق منعًا لإحراجه.

يحدِّثهُ زميله والسيارة تتهادَى على الطريق عن سُخرية زملائه منه؛ لانطوائه وعُزلته عنهم، ونظرتهم إليه بصفته

شخصًا من الزمن البائد، فكيف لا يخرج معهم الى المتنزهات، وكيف لا يشارك مثلهم فى الأنشطة الطُّلابية، حتى الفاصل بين المحاضرات يقضيه فى المكتبة ولا ينعَم به.

يدير عينيه إلى اليسار ناحيته؛ ليراه وهو يَتقيأ الحروف استكمالاً لما بَدأ:

ـ لِمَ تحبِسْ نفسكَ هكذا؟ لِمَ تحرمها من أيّ مُتعة ولو كانت بعض المرح كما نفعل؟ ما جدوى التفوُّق وأنتَ لا تملك "واسطة" تمكنك من السيطرة؟.

يشيح بوجهه إلى الناحية الأخرى كاظمًا غيظه، يسحب نفَسًا عميقًا يُخرجه زَفرة طويلة؛ وهو يرى أباه فى مزرعة الدجاج وعرقه يتصبب من جبينه، ينظر إليه بابتسامة طيبة وبجواره الأمّ تنظِّف أواني السِّقاية وتشكو إلى الله ما بها، يعود ببصره إلى الأمام فى صمت ولا ينبس حرفًا.

ينطلق زميله بالسيارة مُسرعًا، يرفع صوت مُشغِّل الأسطوانات، تنتفضُ السماعات بموسيقى غريبة وكلمات

ركيكة، يتراقص مع الدَّببات الصاخبة، يُردِّد كلمات الأغنية الهابطة.

يتفرَّس ملامح زميله وهو يتراقص كأنه يراه لأول مرة، يشعر أنه الآن أكثر تفاهة مما رآه من قبل، تشرد عيناه مع رقصة أخرى لسيقان الخُضرة وهي بين يديّ أبيه والنَّسيم يمرح معها، تصرخ نظراته فى وجه زميله:

ـ لو كان والدك يَشقَى شقاء والدي منذ الصباح يوميًا حتى الغروب لقاء أجر زهيد؛ وأمُّكَ تُجاهد معه ليُطعما ستة أفواهٍ نَهِمَة، ويحرصا على تعليمهم، وبلدتك ليس فيها مدرسة؛ فتمشي على قدميكَ كيلو مترات عِدَّة فى عِزّ البرد وعِزّ الصيف؛ لتبلُغ أخرى فيها مدرسة، وكان دولاب ملابسك عبارة عن مسمار على الحائط، وملابسك الجديدة هي ما يَضيق على ابن أحد الجيران، هل كنت سترقص هكذا؟.

يفيق على انخفاض صوت المذياع، تَتوقَّف السيارة أمام المدينة الجامعية، يُخاطبه زميله بحدَّة مُنتقدًا شروده:

ـ أين كُنت ؟ لقد وصلنا،؛ انزل.

ثم يُعقِّب ساخرًا:

ـ أقصد عُد إلى سِجنك.

تمرُّ الشهور، ويحين وقت الحصاد؛ هو الأول على أقسام الكلية الأربعة.

وسط حضورٍ كثيفٍ يُكرِّمه العميد، يُسلمه درع الجامعة وشهادة تقدير، تنساب دموعه على خدَّيه فى صَمْت، يزيحها بيدٍ ثابتةٍ حاسمة الحركات؛ وهو يهبط دَرَج المنصَّة، يخلع الرّوب الجامعيّ وهو يُغادر، يَشُقُّ الصُّفوف مُتلهفًا؛ ليصل إليهما، ينهض والده واقفًا، يتلقفه بين أحضانه ويُقبِّل يديه ورأسه، يحتضن الأم ودموعه تسيل على خدَّيه، يُلبِسُها الرُّوب ويسلِّمها الدِّرع والشهادة.

الصورة لافتة، ينتبه الحضور، روبٌ وجلباب، يهرعون بالوقوف، يُصفِّقون في هيستيريا، التصفيق يَرجُّ القاعة، ترتسم على وجوههم ابتساماتٍ دامعة، يحسبونها أمَّه، لا يعلم أحد أنها زوجة أبيه التي ربَّتهُ بعد موت أمِّه.

اختبار

يتَناهَى إلى قائد الكلية تعسُّفه فى تقييم الطلبة فى اختبار الثَّبات الانفعالي، نسبة النجاح مُتدنيَّة بشكل لافت غير معقول.

يُصطَفى البعض من الطابور؛ ويُقَدَّم على غيره مُعزَّزًا، يبتسم له رئيس اللجنة؛ بينما يَنهَرْ فى - ذات الوقت - آخرين، يزداد التوتر، يتسلل الإحباط إلى وجدانهم، يتهامسون بتعبيراتهم الشبابية في رُعب:

ـ ما لهذا الرجل منفوخٌ هكذا؟

يسأل القائد عن رئيس اللجنة، يتذكَّره، قريتاهما تتقابَلان؛ يفصل بينهما نهر النيل وتربطهما معًا معدِّية على شكل قارب، تَصادَف أن عمِل فى أرضه الزراعية ذاتَ صيْف، كان يأتي وآخرين من أقرانه ليعملوا فى البَرِّ الثاني.

علِم من أقرانه حينذاك؛ أنَّ ترتيبه فى الثانوية العامة هو الأول على محافظته، لفتَ انتباهه يومها ليتقدَّم إلى هذه الكلية وزكَّاه فيها، واستمر مُتفوقًا حتى كان من أعضاء هيئة التدريس.

يتساءل مع نفسه صامتًا: كان فقيرًا وتَربَّى يتيمًا، أليس حَريًّا به اللِّين والرحمة؟ ألا يُقدِّر جلال الموقف ورهبة الاختبار؟ أم أنها نشوة السُّلطة حين تلعب بالرؤوس كما تلعب الخمر؟ أم تُراه عُومل فى صِغره معاملة فَظَّة ترَسبَّتْ آثارها فى نفسه وانعكسَتْ على تصرفاته؟

قرَّر الوقوف بنفسه على ما يحدث، فاجأه في حال عمله، هبَّ واقفًا، ارتعد، لأول مرة يُفاجئه القائد في أثناء العمل، تلك المفاجأة ذكَّرته بموقفٍ حدَثَ له فى صِباه، وجدَ العُمدة واقفًا على رأسه وهو يجمع القطن فى أرضه، ودون حديثٍ وبلا مُقدِّمات يصفعهُ صفعةً مدويةً أدارَتْ جسده للناحية الأخرى؛ ليكتشف بعدها، أنّه لم يجمع فُصُوص القطن كاملها من أكمامها، حزن حزناً شديدًا وشعر بإهانة، قرَّرَ بعدها ألا يعمَل صيفًا فى قريته كلها، وإنما فى البرِّ الثاني.

ينعكس أثر ارتباكه على وجوه التلاميذ، لا يَدْرُون ما يَحدُث، كأنهم قد كُتب عليهم التَّوتُّر أمام هذه اللجنة فى كل حين.

يُستأنَف الاختبار، دقائق وينصرف القائد ليَكمُن قريبًا من سيارة ذلك الفظّ.

يُنهي أعماله، يأتى كالطاووس قاصدًا إياها، يقترب، يلمح إطارين من إطاراتها قد أُفرغا من الهواء، يُسرع الخُطى، ينادي على الحارس، يُشير إلى الإطارين وعيناه تكادان تَجحَظان، يَصفع الحارس صَفعةً قوية، يُوسِعهُ سَبًّا وشَتمًا، لم يَقوَ أن يقول له إنه أمْرُ القائد، يَخرُج عليه القائد من مَكْمَنِه.

لحظة يقين

انقضَّ على مكاتبهم؛ يُوسِعهم عتابًا مُتشنِّجًا بلغ حدّ الإهانة، قياداتٌ كبيرة فى مواقعها، بَيْدَ أنَّ أحدُهم لم يَنبس بحرف، كانوا تلاميذه، وكان يومًا ذا شأن في ذلك المكان عظيم.

اجتاز نجله جميع الاختبارات والكشوف الطبية؛ وبات أمرُ إعلان قبوله طالبًا فى هذه الكلية المرموقة أمرًا مُفترضًا.

مِن واقع كشوف المقبولين قُبيل إعلانها هنَّأوه بقبوله؛ ولكن كانت الفاجعة، أُعْلنت النتيجة ليكتشف أنَّ ابنه ليس من بينهم، تشابُهًا رباعيًا فى الاسم ولكنه ليس هو.

جاءوا بالأوراق إثر ثورته، صدَق قوله، ليس هو، هدَّأوا من روعه، وعدوه بمراجعة الأمر من خلال تظلم.

يظل ثائرا، ويستمر فى توجيه لعناته إليهم:

ـ هل عَميتُم؟ أهكذا تأخذون بظاهر الأسماء دون فحص دقيق لمحتوى الورق؟ تشابُه فى الاسم يَعميكم؟ تبًّا لكم جميعا.

مدير الكلية يأخذه الفضول، يُرسل فى طلب صاحب الاسم الشَّبيه، شابٌ مفتول العضلات؛ بَهيّ الطَّلعة؛ بشوش الوجه، يؤدِّي التحية فور مُثوله مشدود الجسم مُعتزًا بنفسه.

يسأله من هو، يرتعدُ فى داخله، يتشبَّث بالتماسك حتى لا يهوِي على الأرض، يُحدِّث نفسه: لقد وقع ما كنتُ أخشاه، يحكي عن أب فلاح مُتوفَّىَ وأمّ تبيع الخضار لتُربِّي أربعة هو أحدهم، ولكنهم جميعًا يُعوِّضونها الشَّقاء بتفوقهم، وعن أحد زملائه حين أعلَنت الكلية فتح باب القبول لدفعة جديدة من حملة الثانوية العامة، نصحهُ بالتقدُّم، سخَر منه، كيف وهو ابن بائعة خضار، هوَّن عليه زميله الأمر، تفوُّقكَ سيكون له دَوْر؛ والملف بخمسين جنيهًا فلن تخسر كثيرًا.

يُغازله حُلمٌ وأمَلْ، قصَّ على أمِّه قصَّته، قالت: هذه هي الخمسين جنيها وافعَل، أطرَق صامتًا، تسأله:

ـ ما بكَ؟

ـ يقول ساهمًا:

ـ أُمَّاهُ وبعد أن أفعَل؟ مَن لنا؟ نحن فقراء!.

رفَعتْ وجهه إلى أعلى بيدٍ قويةٍ، دفعتهُ بها دَفعةً مُفاجِئة من تحت ذَقنه، وبنظرةٍ ثابتة كلها يقين قالت تُعنِّفه :

ـ لنا ربُّنا يا ولدي، ثِق في قدرته؛ ولا تقولها مرَّة أخرى.

سمِع الرجل حكايته، تملَّكهُ إحساسٌ غريبٌ لم يشعر به من قَبل، هزَّ رأسه ليُؤَمِّنَ على خُشوعٍ ملأ قلبه؛ وعلى حديثٍ حدَّثته به نفسه:

ـ نعم .. هيَ مشيئة الله؛ وكان تطابُق الاسمين هو السبب.

يَرتاب الطالب لهزَّة رأسه، تتَّسِع عيناهُ فى وضعٍ ثابتٍ؛ هو التَّحديق الحاد فى عينيّ الرَّجل، تترقرق عيناه بالدموع، يسأل فى انكسار بصوتٍ يرتعش:

ـ هل ستفصلونني يافندم ؟

أطرَقَ الرجل، أراد أن يُخفي عينيه؛ وقد شَعر بعَبرات سَتغلبه:

ـ لا يا بُنيّ، ولكن قُل لي، هل دفَعْتَ المصاريف؟

يحسَبُها القشَّة التى ستقصم ظهره، تملَّكتهُ رَعشة، زاغَت عيناه، استدعى فى لحظةٍ مثل ومْض البرق كل ما كان يسمعه، ما للفقراء وهذه الكلية؟ لقد صدقوا، وهذه هي النتيجة حين اكتشفوا فَقري، ها هم يراجعون أنفسهم لأني فقير، لِمَ

صَدَّقتُكِ يا أمِّي؟ ماذا سيقول الناس عنِّي، ليتهم لم يقبلوني منذ البداية.

طال صَمته، تحجَّرت دموعهُ فى عينيه رفضَتْ أنْ تنحدر على الرغم من اتساعها إلى حد الجحوظ.

يُنبهه الرجل:

ـ أجب يا بُنيّ.

تزداد رعشته، كأن حُمَّى ضربَت جسدهُ لِتوِّها، تلجْلجَ لسانه، تلعثم، لم يعد يُسيطر على مَخارج الكلمات:

ـ سا .. سا .. سأدفعها، سأدفعها، أمِّي قالت سنبيع جزءًا من الدَّار لجارنا.

يُنحِّي الرَّجل عن خدّيهِ دَمعات خانتهُ وانحدَرت، يقول بصوت حانٍ:

ـ لا يا بُنيّ، لن تبيعوا شيئًا، مصاريف سنواتك الأربعة في ذمَّتي حتى تتخرج، على أن تعدني بتفوُّقك.

يقفز الطالب من أمامه ليكون فى لمح البصر إلى جوار مقعده، تنقلب رعشة صوته إلى نهنهاتٍ تهزُّ جدران المكتب، ينقضُّ على يده ليُقبِّلها، ينتزعها منه سَريعًا، يمسح بها على رأسه، ويَربُت على ظهره.

امتدار

لَمَحْتُه على مسافة غير بعيدة؛ بشَعره الأشيَبْ الذي نَكشَهُ هواء تلك الليلية الصيفية، كان رئيسي فى العمل؛ تعجَّبتُ لهيئته، ما بالُ النَّحافةِ قد ضَربَتْ جسدهُ إلى هذا الحدّ، وما بال ملابسه تبدو أقل من العادية؛ وقد كُنَّا نحسده على أناقته واعتزازه بنفسه.

لم أصدِّقُ ما رأيتُ، جلس القُرفصاء يَضع كفَّيه على عينيه ثم يرفعهما ويبتسم لِلا أحَد، ثم يُعيدهما، ثم يعود ويَرفعهما ويبتسم، وهكذا مرَّات عِدَّة ، كان هذا قُرب حديقة خضراء تحفها أزهار الصيف؛ جلستُ فيها على الكافيه المفتوح الملحق بها.

مِلتُ بجسدي يُمْنة ويُسْرة لأتفحَّص المكان جيدًا؛ لم أجد أحدًا من حوله ولا فى مُواجهته، هل جُنَّ الرجل ولم يمض على بلوغه سن المعاش بضع سنوات؛ وكان فى قمة العقل والحكمة؟ وإذا كان قد مَسَّهُ مَرضٌ؛ ألا يُرافقه أحد من أهله؛ لا سيما فى مثل هذا المكان المفتوح من قرية سياحية؟

لحظاتٌ؛ وإذا به يمشي على أربَعٍ وينادي:

- كِيمُو .. كِيمُو.

ثم يسير على هذه الهيئة لمسافة قصيرة يَسارًا، ثم لمسافة مثلها يَمينًا، ثم يعود ليُغيِّر اتِّجاهَهُ، وكأنه يدور حول نفسه، مراتٍ عِدَّة فَعلَها ولا يُجيبه أحد، قَطعْتُ بأنَّ جُنونًا قد مسَّه لا مَحالة.

أشْفقتُ عليه، تَوجَّهتُ ناحيته لأنحِّيه عما يفعل؛ أو لأعيده إلى مسكنه، فقد صارت الأنظار تُتابعه باندهاشٍ شديد.

لم يَشعُر باقترابي، اعتدَل من وضع المَشي على أربع ونهضَ جَريًا نحو ألعاب الأطفال؛ قاصدًا بيت جُحا الذى يختبئ فيه الأطفال، لابدَّ أنه سيفعل مثلهم، انتظرْتُ حتى إذا ما خرج منه أعدْتُه إلى أهله.

لم يَطُل فى هذه المرة تعَجُّبي، لم يدخُل بيت جُحا؛ خرج طفل فى نحو الرابعة يجري نحوه فَرِحًا مُتهلِّلاً، تلقَّفهُ بين أحضانه فى سعادة غامرة، رَفعَهُ فى الهواء وأمْطَرهُ بالقُبَل، ثم عاد واعتصره فى حضنه وهو يُقهْقه.

أسْرعتُ إليه، سلَّم عليَّ بحرارة، عرَّفني بالطفل:

- "كيمُو" حفيدي.

هنادي

في ليلةٍ سوداءَ سوادَ جَهنَّم؛ رجَعَتْ إليه ابنته العروس تحت جُنْحِ الذُّلِّ فجر ليلة زفافها، مُطأطِئة الرأس كسِيرة النَّفس تسبقُها دموعها.

فتح أبوها الباب، تَقَهْقرَ، سقطَ جالسًا يَسنِدُ رأسه بين كفَّيه، دارَتْ به غرفته الكائنة تحت بئر السلم.

صرخَتْ الأمَّ، لطَمَتْ خَدَّيها، هُرع أخوها من مَرقده، وقفَ فاغرًا فاه لا ينطق، انتهَي نبأ الكارثة إلى أختها المتزوجة، تركَتْ جميع شئونها وجاءت تَنتحِبْ.

امْتدَّ الرَّقص والغناءُ حتى اقتربَ الفجر في الليلة الفائتة، الأبُ والابن تبادَلا التَّحْطيب في وصلة طويلة؛ كشفَتْ عن براعة أهل الصعيد في أداء هذه الرَّقصة، الجيران وذووهم من أهل الصعيد لم يجلسوا في أماكنهم، استقبلوا الضيوف، رقصوا بالعِصيّ على نغمات المزمار البلدي، الأم وجاراتها الصعيديات كُنَّ في فرحة عارمة، ورقصَت هنادي معهم، تحلَّقْنَ من حولها وشاركنها سعادتها، وطوال فترة خطبتها لم يلحظوا نفورًا ما بينها وبين عريسها.

دارت هذه الصورة لحفل الزفاف وفترة خطبتها في رأس والدها، إذَن هو الشَّرف ولا شيء غيره.

***

تُفيقُ الأمُّ من صَدْمَتها، تُسرع إلى هنادي، تسألها فلا تُجيب، تهزُّها بعنفٍ هزًّا يُزلزل جسدها؛ تُحملق فيها ولا ترُدْ، تَصفعُها صَفعاتٍ مُتلاحقةً لتنطق، تُسَّلمُها خدَّيها ولا تُقاوم.

لم يَطُل أمرُ التوقُّعات والتخمينات كثيرًا، طرَق الباب أحد البَّوابين بلديات والدها، كان الزَّوج قد استدعاه ليُنهي إليه نبأ الكارثة، قبل أن يَمَسَّها صارَحَتهُ هنادي بأمرها، حامل في شهرها الثالث من غيره.

يشعُر الأبُ بالطَّعنةِ فى قلبه قبل شرَفه، لم يرفع عينيه في عين الرَّاوي، ظلَّ فاتحًا عينيه ينظرُ بهما إلى لا شيء في الأرض دون أنْ تَرْمشا، أنهَي الرَّاوي حديثه؛ ثم أتبعَهُ بسؤال بنبرة مُحفزِّة تحثُّه على ما يعرفه جيدا:

ـ قُل لي ماذا ستفعل؟ ماذا ستقول لأهلنا في قِبْلي؟

يرفع الأب كفَّ يُسراه مَبسوطةً وهو لم يزل مُنكَّس الرأس، ويقول له فى حَسْم:

ـ جئتَ بما كُلِّفتَ به، فلا شأن لكَ بما عداه وانصرف.

سرَى النبأ في المنطقة سريان النار في الهشيم يوم ريح عاتية، كأنهم لم يُغادروا بعد أقاصي الصعيد إلى الاسكندرية منذ خمس وعشرين سنة.

الألسنةُ تَلوك القصَّة، الأعيُن تَفترسُه وتفترس ابنه في الرَّواح والغُدوّ، نِسوةُ البوابين من جيرانهم يأتين إلى البيت كأنَّهنَّ فى عَزاء، تُقطِّع أعيُنهن فى لحم أهل الدار جميعًا.

الأبُ لا يُغادر حجرته في بئر السلم؛ ويدع زوجته لقضاء طلبات السُّكان، الأم أسْدَلت غِطاء رأسها على وجهها في مَجيئها ورَواحها، الابنُ التزَم الغرفة هو الآخر حتى فُصل من عمله، حذَّره والده قبل حصول الفصل ولكنه لم يستجب، قال:

ـ كيف يا أبي أُواجِه الناسَ قبل غَسْل عارنا، هل نسِيتَ ما شاهدْتَه في صِباكَ وحَكيْتَ لي عنه؛ لَمَّا حبَلَتْ ابنة جاركم من خطيبها؛ ورفَض أبوها تزويجها له؛ وسَكبَ عليها الجّاز وأشعَلَ فيها النار في قلب الشارع أمام داره؛ ليراه الناس وهو يتطهَّر من عاره؛ ولم يشهد ضده أحد، بل شهدوا أنها انتحرَتْ؟

كان الأب يُجيبه:

ـ صَعبٌ يا ولدي.

يُجيب الابن غاضبًا:

ـ ولكنه العار يا والدي .. ؛ نتطهَّر لرفْع رؤوسنا.

***

وكأنَّ القدَر كتَبَ على هؤلاء البُؤساء ليس مُصيبة واحدة بل مُصيبتين، يدقُّ مُخضَر باب غرفتهم، إعلان بتطليق الابنة المتزوجة، لم ينفعل والدها، فهو أمر طبيعي بعد عار أختها.

تصرخ المطلَّقة، تُعنِّف هنادي:

ـ أنتِ السبب، لأنكِ عاهرة، لم يرضَ عارَك فطلَّقني.

تنهار هنادي، تخرُج عن صَمتها لأول مرة، تلطُم خدَّيها:

ـ ليس كذلك، ليس كذلك،

تَهزُّها المُطلَّقة وهي لم تزل تصرخ:

ـ إذن ماذا؟ تكلَّمي؟

تُفجِّر كارثة جديدة:

ـ زوجُكِ هو الذي ...!

يَشْتدُّ صُراخها:

ـ هو ماذا؟ تكلَّمي.

ـ هو من أتَى الحرام معي، تقولها ثم تَفرُّ جرْيًا من أمامها.

لم يكن وقْع تلك المصيبة عليهم أنْكَى مما وقَع، يخرج الابن عن صمته، يصطحب والده خارج الغرفة، ينتحيان جانبًا مُظلمًا من الشارع ويجلسان:

ـ ماذا سنفعل يا أبي؟

يصمُتْ، يُعيد الابن عليه السؤال، يجيبه والده بسؤال:

ـ قل أنتَ.

يرد الابن:

ـ وهل هناك من حلٍّ غيره؟

يُدير له وجهه :

ـ ما هو؟

يقول الابن قاطعًا برأيه:

ـ نَغسلُ عارَنا. .

ينفعل الأب، يَعلو صوته بكلمة واحدة:

ـ لا !

يفقد الابن صوابه، تجحظ عيناه، يخلع ملفحته عن كتفيه ويُلقي بها في وجه أبيه، يعلو صوته كالرَّعد:

ـ كيف لا؟ هل نسِيت أصلك يا صعيدي؟ هل صِرْتَ أفنديًا هل ستَقبل أنْ تعيش امرأة؟

يَستدير إليه والده، يُحْملقُ فيه بعينين مُرعبتين، يرفع يده الغليظة عالية فى الهواء، يهوي بها على وجهه، يوالي توجيه الصفعات إليه في كل مكان من جسمه يصادف لكماته، يفرُّ الابن هاربا من أمامه.

يعود الأبُ إلى غرفته وساقاه لا تكادان تحملانه، يُلقي بجسده على الأرض، تتسلَّل إليه زوجته يكسوها حُزنٌ وذُل تسأله:

ـ ماذا ستفعل؟

يُجيب بصوتٍ خفيض مهزوم:

ـ دَعيني الآن.

تنظرُ إليه نظرة سُخرية وتضحك في تَهكُّم وتقول:

ـ سأدعُكَ، ولكن عارَك لن يدعَك، سيُلاحققك، قل لي؛ لماذا لا تغادر الحجرة طوال النهار؟ لماذا لا تخرج إلا كالخفافيش في الظلام؟

يلجأ الأبُ إلى المسجد، يُقيم فيه ثلاث ليال مُتتابعات، لعلَّ رحماتُ الرَّب تشمله، لعل السماءَ تَهديهِ إلى صوابه.

نال حظًا من التعليم حتى أتمَّ شهادة الإعدادية؛ ثم نزح بعدها إلى الاسكندرية، ولما تزوَّج جاء بابنة عمِّه من الصعيد، لم يؤمنُ يومًا بفكرة الثأر؛ وإن كان لم يجرُؤ أن يقولها.

العارُ يُطارده حتى فى المسجد، يجلس أحدُهم إلى جواره، يهمِسُ فى أذنه:

ـ اغسِلْ عارك ولا تَخَف، طهِّر نفسَك.

يرمقه في صمتٍ ويغادره، يفعَلُها ثانٍ؛ وثالث؛ ورابع؛ فى الأيام اللاحقة.

هَجرَ المسجد وعاد إلى بيته، كادَت الهواجس أن تقتله؛ وكادتْ الأفكارُ أن تذهَبَ بعقله.

الصَّمتُ والحزن يُطْبِقان على المكان، قام ليفتح تلفازه القديم، كان الوقت عصرًا، وكان التليفزيون يعرض فيلم شفيقة ومتولي، كأنَّ القدَر يُعانده، كان الموَّال يَتردَّد "صعيدي عنده الشرف غالي .. وعاش بشرفه الجرجاوي".

ارتسَمت أمام ناظريه صورة أنْ كان صَبيًا قبل أن ينزح إلى الإسكندرية، وهو عائد إلى داره عصرًا؛ وإذا بجمع خفير من الجيران يتحلَّقون حول جارهم الكبير في السن الحاج حمدان؛ وهو ممسك بابنته الشابة من شَعرها؛ وهي تحاول أن تتملّص منه دون جَدوى، ودون أن يجرؤ أحد على تخليصها منه، تمكن منها بيده اليمنى؛ وكانت اليُسرى تُخرج زجاجة من جيبه أفرغها فوق رأسها وألقى بها، ثم أخرج ولاعة وأضرم النار فيها، عَلِمَ وقتها مثل باقي الجيران أنها حبلت من خطيبها قبل أن يتزوجها، كان منظرًا مُرعبًا لم يَمْحُه الزمن من مُخيِّلته، ظلت الفتاة تترنح والنار ممسكة بها حتى سقطت أرضًا ونقلت إلى المستشفى وقالوا إنها انتحَرَت، وفي المستشفى فاضت روحها إلى بارئها.

اتَّسَعتْ عيناه وهو يُتابع التلفاز، وراحت نفسه تحدثه:

ـ ولمَ لا؟ ألم يُذع التلفاز حكاية متولي مع شفيقة وغسله لعاره؛ وانتشاء الناس بالقصة واستحسانهم غسل عاره؟

على غير موعد عاد الابن، راح يُتابع مع والده الفيلم، رمَقهُ بطرف عينه، أدركَ الأب معنى نظرته الساخرة، أغلقَ التلفاز وهَمَّ خارجًا.

سارَ بلا هُدَىً فى الشارع الطويل، قَطَعهُ ذهابًا وايابًا وكلمات الموَّال تطنُّ فى أذنيه: "صعيدي عنده الشرف غالي، وعاش بشرفه الجرجاوي، قالهَّا يا شفيقة بعد إيه تتُوبي، وتتمحَّكي وتقولي مكتوبي، دي رُقعة ما تتطلعش من تُوبي، متولي شَريف من دي الساعة .. وخَلصْ مِن العار بشجاعة".

يتملَّك منهُ شيطانه، يتوقَّف ذهنه عند صورة هنادي في دعاء الكروان وخالها يذبحها؛ وأمُّها صامتة تباركه بصمتها، لم يعتبره المجتمع قاتلاً، بل رفَعهُ فوق الأعناق.

يعود إلى الدار كأنه مُخدَّر مُكفَهِرّ الوجه، يأمر ابنه بحدَّة:

ـ قُم معي .. يسيرُ مُنوَّمًا إلى غرفة ابنته، يتبعهُ الابن مُتهلِّلاً.

حَيْرَةُ أَمَل

كان غداء جميلاً، حرص على اصطحابي معه،لم يَعْتدْ مثل هذه العزائم بصفة عامة، ولكن ذلك الرَّجل صمَّمَ على دعوته إليه فاضطرَّ إلى قبول الدعوة.

تقابَلا مُصادفة في تلك المحافظة النائية وتَعرَّفا إلى بعضهما، اكتشفا أنهما من مركز واحد، واعتبر زوجي ضيفًا عليه؛ إذ جاء لاحقًا، هذا ما فهمته عن سبب العزومة.

كان من الممكن أن يذهبَ إلى هذا الغداء بمفرده، لستُ أدري لماذا شاء على غير عادته أن أرافقه، هل ليُضْفي على الدعوة طابعًا رسميًا؟ أم لتوثيق علاقتهما على مستوىً أُسريّ؟ لم أفهم!

كان عصر ذلك اليوم ربيعيًا هامِس النَّسَمات، المكان تَحفُّه أزهارٌ ونخيلٌ وأشجار زينة، شلاَّلات مياه تتوسطه، وجميع أرضه خضراء يانعة مُعتَنى بها.

جاءت زوجته معه وتَعارَفْنا، لم أتخيَّل أن تكون هي، كل ما أعرفهُ عنها من قبل؛ أنها وزوجي تخرَّجا معًا فى كلية واحدة ثم تزوجَّت؛ وانقطعَتْ عنه أخبارها، عشرين عامًا لم يذكر لي

سيرتها؛ ولم أتخيَّل أن يتقابلا مرَّة أخرى هكذا.

أعرفُ أنهما ارتبطا عاطفيا خلال دراستهما الجامعية، كانت ابنة مسئول كبير؛ رفض والدها خِطبتها له لانعدام تكافُئهما الاجتماعي؛ أفهَمَهُ أنها مريضة بالسرطان ولا تصلح للزواج كما قال الأطباء؛ وطلب منه الانسحاب من حياتها في هدوء؛ وعدم مُواجهتها حتى لا تنتكس؛ ثم اصطحبها معه للخارج ليُبعدُها عنه، أما هو فقد أوفى بوعده، امتنع عن الرَّد على رسائلها، حتى علِمَتْ بما حدَث وأخبرَتهُ بخدعة والدها، ولكنه كان قد تقدَّم لِخطبتي ولم يقو على التَّراجُع، سألته حينها: هل لم تزل تحبها؟ فأفهمني أنه نسِيَها تمامًا، وأن ما كان بينهما في الجامعة لا يعدو أن يكون حب تلاميذ غير ناضج.

على الغَداء حَكى زوجها كيف تَعرَّفا حتى تزوَّجا، وحَكى زوجي عَنِّي وأسْهَبَ؛ كأنه يتغزَّل فى امرأةٍ لا أعرفها، كان مُتهلِّل الوجه مُنتشيًا؛ تُرفرفُ أجنحة السعادة على ملامحه.

في البَدْءِ كان جوُّ اللقاء جميلاً، أحاديث رقيقة وموسيقى ناعمة تَنبعثُ في أرجاء المكان؛ فتُثير بهجة فى الآذان تتعانَق مع بهجة الأعْيُن؛ فتنسج خيوطًا من السعادة، تتراءَى سلاسل من أضواء مضيئة.

رحَّبَتْ بنا وتجاذبَتْ مع زوجي أطراف ذكريات الجامعة، كنتُ أراقبُ عينيه وتعبيرات وجهه وهو يتحدث إليها، كانت كل ذرة من ذرات كيانه تَشي بسعادة لم ألحظها في عينيه من قبل، وفجأة؛ وإذا التقت عيناه بعينيها، يَحمَرُّ وجهها حُمرة ظاهرة فاضحة؛كأنَّ بركانًا قد انفجرَ فاندفعَتْ حِمَمهُ لتكسُوَ بالنيران أرضًا كانت وادعة.

ارتبكَتْ لُغة جسدِها، ارتعَشَتْ أصابعها وحركة يدها، تلعْثمَتْ في الكلام، نَهضَتْ واقفة لتَسْحبَ مقعدها إلى الأمام ثم تُعيده للخلف دونما سبب وتعود لتجلس.

تَبدَّدَ جمال المكان فى ناظريَّ، نَشَّزَت الموسيقى، لم أعُد أسمع إلا صَخبًا يَطِنُّ فى أذني، وعَصْفُ ريح باردة يضرب في قلبي، والخُضرة كعَصْفٍ مأكول لا جمال فيه ولا نفْعَ له.

تذكَّرتُ حين كنَّا نُرتِّب أوراقه ومكتبته ذات يوم؛ ورُحنا نَتفقَّد صُوَره مع زملائه في الجامعة، كانت تقِفُ إلى جواره في جميع الصُّور بشكل لافِت، تبسَّم يومها وحكى لي عن مشروع خِطبتهما الذي لم يتِمْ، لم أعبأ حينذاك بما سمِعتُ؛ ولكني أستطيع الآن تفسير أمر هذه الصُّور، فلماذا لم يحتفظ إلا

بالصور التي تظهر فيها إلى جواره؟ لم أجد صورة واحدة تخلو منها، فهل كان هذا مصادفة؟ وهل جاء هذا اللقاء – أيضًا – مُصادفة كما أفهمَني؟

كادت الأفكار أنْ تعصِفَ بذهني، تَعلَّلْتُ بصداع شديدٍ مفاجيءٍ ضرب رأسي، انصرَفْنا فور تناوُل الغَداء، ولكنه راح يُمازحَني وهو يقود السيارة، كان مِزاحًا مُصْطنعًا؛ لَمَّا أدرَك تلك الحيلة التي اخترعتُها لننصرف، لقد لاحَظ على وجهها هو الآخر آثار تلك النَّظرة التي سدَّدها في شِباك عينيها؛ فأتَتْ على اتِّزانها.

لم تُغادِرني التساؤلات طوال الطريق؛ هل قبِلَ الدعوة لَمَّا علِم أنها زوجة الداعي؟ أم كان يُتابع أخبارَها وسَعَى هو إلى اللقاء لَمَّا عرف أنها معه هُنا؟ ثم راح يُصوِّرُ ليَ الأمر باعتباره لقاءً عابرًا مع زوجها؟ ولِمَ لا يكون قد طلَبَ نقله إلى هُنا إثر علْمِهِ بوجودها مع زوجها؟ راح عقلي يَرسُم آلاف السيناريوهات لما حدَثْ.

عَبثًا حاولتُ استبعاد شُكوكي، لماذا أشُكُّ وهو لم يذكرها مرَّة واحدة طوال العشرين سنة الماضية؟ ولم يقل إنَّ زوجها يعمل هُنا منذ عامين؟

ثم أعودُ في محاولة لتبديد ظنوني؛ حتى أَخَفِّفَ من وطأة ضيق صدري إثر احمرار وجهها لَمَّا تقابَلت أعينُهم فأقول لنفسي:

- ربما لم يكن يعلم أين هي، ثم أعودُ فأقول:

- وربما إمْعانًا فى التعتيم كي لا ألاحِظَ شيئًا! ومن الجائز أن وُجودها هُنا حرَّكَ جذوة الحب القديم السَّاكنة تحت رُكام النسيان وعاوده الحنين؛ فلم يستطع كبْحَ جماح مشاعره.

كادَتْ الظنون أن تقتُلني، كل ما يحدث يُمكن أن يكون تلقائيًا، وفي ذات الوقت يُمكنُ أن يُؤجِّجَ نيران الشك في نفسي، ومن الممكن أيضًا ألا يكون كذلك.

في البيْت لاحَظَ وُجومًا يلفُّني، استمرَّ فى التَّلطُّفِ مَعي ولكنَّ شرودًا عجَزْتُ عن تبديده، بدا واضحًا على ملامحي.

ادَّعيتُ الرغبة فى النوم مبكرًا هرَبًا من انفجار دموعي، كان يريد السَّهَر فاعتذرتُ له؛ سبَقتُه إلى حجرة النَّوم، امتعضَ وجهه، شعَرْتُ بأنه قد استوعبَ جيدًا كل ما ألمَّ بي.

لحق بي مُتظاهرًا بأنَّ لا شيء غير عادي يحدُث، حاوَل أنْ يُمازحَني ويُضاحِكَني مرَّة أخرى، ولكنِّي كنتُ واجمة، لا شكَ أنها مجرد محاولاتٍ عابثة؛ ليَصرفني بها عن تفكيري، ثم ما

الذي يُضحكه؟ ليتهُ كان واجمًا مثلي! وحتى لو كان كذلك؛ لظَننتُ أنه حزين على حُبه الذي ضاع منه يومًا ما؛ ثم عادت بطلته لتُطِلَّ عليه مرَّة أخرى عَبْر نافذة الزمن.

لم أحتمل استمراره فيما يصطنع لإضحاكي، انفَجَرْتُ فيه غاضبة :

ـ دعني وشأني .. ألأنَّ الفرحة تقفزُ من عينيك لَّما قابلتُها تُضاحِكَني رغمًا عنِّي؟

اتسعَتْ عيناه في نظرة ثابتة صوَّبها إلى عينيَّ، وبقيَ واجمًا على هذه الصورة لبُرهة ثم انصرَفْ.

بات ليلته في غرفة أخرى؛ وفي الصباح لم يذهب إلى عمله، وبعد مغادرة أطفالنا إلى مدارسهم؛ جاء ليُحدِّثني :

ـ ما بكِ يا أمَل؟

ـ لا شيء

ـ نعم هو لا شيء .. ولكنها أشياء كثيرة.

قالها وظلَّ صامتًا ينظر فى عينيَّ نظرةً لاحظْتُ فيها إشْفاقًا عَليَّ، غلبني البُكاءُ فانخرطتُ فيه، كمن استجمع كل أحزانه في لحظة واحدة، وانتصَبَتْ كالمارد أمام عينيه.

صمَّم على أنْ أتكلم، بُحْتُ له بكل ما ساوَرني منذ أول دقيقة على الغَداء حتى هذه اللحظة، ربَتَ على كتفي بحنان ثم قال، وهو يبتسم :

ـ إنها حساسية حُبكِ الزائد يا أمل؛ وغيْرتكِ التي لا تُغضِبني، سأسألكِ سؤالاً واحدًا:

ـ هل أحسَسْتِ لعشرين سنةً مضَتْ؛ ما يدعوكِ للشَّك في حُبي لكِ؟

أطرَقْتُ خجَلاً .. وقلتُ :

ـ لا.

ابتسَم واستكمَلَ بصوتٍ دافئ:

ـ لا تجعلي أوهامكِ تتدحرج مثل كُرة الثلج فيكبرُ بداخلك الشَّكْ، أو تُشتِّتَ أفكارك كضاربة ودَعْ يَصلُح كلامها لكل تأويل، أمَّا تلك الصُّور المُهمَلة التي تتحدثين عنها؛ فلا تَعني شيئًا مُحددًا؛ أنتِ حبيبتي؛ ولا أحد غيرك، ولن يكون.

مسَح على رأسي بحنان، قبَّلَ جبيني، ضَمَّني بحب وغادَرني بابتسامة رقيقة إلى غرفة مكتبه.

شعَرتُ بارتياح، لُمتُ نفسي على ظنوني وحَيْرَتي وقرَّرْتُ الاعتذار له، لحِقْتُ به في غرفة المكتب، لمحتُه وقد أمسَك بصورتها ينظرُ فيها؛ ولما أحسَّ بدخولي أعادها سريعًا إلى موضِعِها.

بَقَايا معركة

على مسافةٍ آمنةٍ كانت صداقتها به، كان يُغازلها أحيانًا غَزلاً بريئًا؛ ثم لا يَلبث أن يعود إلى الاهتمام بها اهتمامًا خاليًا من نوايا السُّوء، فوجدت فيه من الصفات ما يجعله الصديق الأقرب.

حينما انطلقت معه قاصدين مطروح؛ أدارت "كاسيت" سيارتها وراحت تُغني وترقص مع أغنية"عَلِّى صُوتَكْ بالغُنا .. لِسَّة الأغاني مُمكنة" وكلما تجاوَزَتْ سيارة تتقدمها؛ تفرح كالأطفال وتُهلِّل، وحين يَتخوَّف من قيادتها مُسرعة تضربه في دلال على كتفه ثم تعود للضَّحك.

ضحِكَ لضَحِكها، فرح لفَرحِها، ولكنه تذكَّر تلك الحالات الغريبة التي تنتابها بعد مثل هذا المرَح، تنقلب من النقيض إلى النقيض بدون أسباب مفهومة، وكان كلما يسألها عن أسباب ذلك، تُجيب بعبارة واحدة : "لا شيء" ثم تعود لجنونها مرة أخرى.

فى مطروح، تنزَّها، سَبَحا، ضَحِكا، لَعِبا؛ مُنفردين ومع باقي زملائهما، وعلى حين غرَّة تضربها موجة الحزن المعتادة، لزمَت غرفتها وأبتْ الخروج فى ذاكَ اليوم.

حاوَلَ جاهدًا أن يُخرجها مما هي فيه؛ ليُعيدَها إلى حالتها الطبيعية دون جدوى، قالت اتخذتُ قراري، ولن أُغادر غرفتي؛ وإن شِئتَ أن تبقَى معي؛ فلتَبقَ.

دخلَ عالمها الخاص؛ ليفهم شيئًا من أسباب تقلُّب مزاجها، كانت عيناها شاردتين ونفسها كسيرة، راح يفكر فلم يجد لذلك سببًا.

فى الليلة السابقة سهرا مع الرُّفقاءِ حتى أوَى كلٌّ منهم إلى فِراشه، لم يُضايقها أحد، فما الذى يُحزنها وهي تملك سيارة، وتمرح، وتلعب، وتضحك، وتُنفق بسخاء، وتسافر وحدها ؟

ظنَّها ببقائها في الغرفة تمنحهُ إذنًا ضِمنيًا بأن يروي شوقًا مكبوتًا لديها، تأجَّجَتْ مشاعره؛ تاقت نفسه شوقًا إلى أن يَضُمَّها إليه، أن يُقبِّلها، أن يُهدِّئ من ذلك الشَّوق المكبوت فى صدره، رائحتها الأنثوية؛ وطوفان العواطف، وفضاء الغرفة وسُكونها؛ يُحرِّكان كل مشاعره إلى التوحُّدِ جسديًّا مع أنثى.

كانت تتقوقع على نفسها فى سريرها، وكان هو يجلس على أريكة مُواجِهة، قام وهو يبتسم، جلس على حافة السرير، اقتربَ منها يتحسَّس ذراعها العاري بأصابعه وعيناه تلمع فيهما رغبة؛ ليس من العسير على أنثى مثلها أن تدركها.

انتابها رعبٌ من جُرأته، لم تدرِ ماذا تفعل وهي مُحاصَرة بهذا الخوف؛ وبوحدتها، وبالجنون الثائر فى عينيه الآتي من أعماق لاوَعْيه، تَحوَّل خوفها إلى هذيانٍ صارخ تصحبه دموع وشهَقاتٌ مرتعشة، صرخَت فى وجهه بجنون:

ـ "كُلُّكم واحد" "كُلُّكم واحد"!

أفاق من وهمِهِ السابق على صورة الرُّعب المرسوم على وجهها، انزاحت الرَّغبة الضاغطة على عقله ومشاعره ليفيق على حقيقةٍ مُوجِعة، إنَّ هذا ليس تمنُّعًا، إنه انهيار حقيقي.

أبدى لها اعتذارا وندمًا بالغين؛ أحسَّتهما من نبرات صوته وملامح وجهه؛ ثم طلب منها أن تحكي ماذا يؤزِّمها حملقَتْ فيه وهي لم تزل مفجوعة ولم تنبِس بحرف، أعاد على مسامعها رأيها فيه سابقًا، ألم تقولي إنني الصديق الذى تأمَنين له؟

اطمأنَّت إلى أنَّ ما بدرَ منه كان نزوة، أو ربما مغازلة غير مسئولة؛ زادت عن الحد بعض الشيء، هدأَتْ قليلاً، أزاحَتْ عن عينيها عبَراتٍ كانت قد داهمتها.

وجدها فرصةً سانحةً ليَستنطقها، أمسكَ يدها برفق فاستجابَت له، سحبها برفقٍ من فوق السَّرير إلى الأريكة وجلس إلى جوارها.

يرجوها مرة أخرى أن تُسامحه، أمالت رأسها على كتفه فطوَّق كتفها بذراعه؛ وواصل حثِّها على الكلام :

ـ قولي شيئا ، أريحي صدرك، ماذا يُحزنِك اليوم ؟

تساءَلتْ ساخرةً وهي تَسْكُنُ إلى كتفه :

ـ اليوم ؟ اليوم فقط؟

ثم غادرَتهُ واعتدلت فى جلستها ورمقته بنظرة خاطفة وانفرجَت شفتاها عن ابتسامة باهتة؛ وهي تهزُّ رأسها قليلاً واستمرت لِتُكملَ ما بدأت :

ـ ليس اليوم فقط حزينة، أنا دائما حزينة، ولكنَّ تلك الأقنعة الزائفة من اللَّعب واللهو والضَّحك؛ التي أكسُو بها نفسي؛ لم أعُد أقوَى على سَتْرها، فتتعرَّى لي فى لحظةٍ لأراها على حقيقتها، لستُ أدري لماذا شعرتُ بسقوط هذه الأقنعة، لقد

تعبتُ من تمثيل أدوار السعادة، أريدُ أن أظهر على حقيقتي أنا حزينة فلماذا أُخفي حُزني؟ أأضحكُ على الناس أم على نفسي ؟ ثم أمسكَتْ عن الكلام.

خجل الشاب من نفسه؛ أدرك أنها أعمَق مما كان يتخيلها، إنها بالفعل لم تكن تقصد حين بقيَتْ فى غرفتها إلا أن تستحوذ عليه بصفته صديقًا مخلصًا، وكأنما وجدَتها فرصة سانحة لتُفضفض ما يُؤزِّم حالتها النفسية فأكمَلت :

ـ إنَّ الظروف التي أحاطت بي، وذلك التناقض الذي تراني فيه، جعلني أشيخُ من داخلي، ولم لا وأنا لا أستطيع أن أرفض دورًا لا أستطيع رفْضه، وإذا رفضتُه كان مصيري ومصير أختي وصغيرها الضياع.

يقاطَعها مُتسائلا فى تعجُّب :

ـ أختكِ؟ وما لأختك وصغيرها وحُزنِكْ؟!

تصمُت برهة، تسحب نفسًا عميقا تُخرجه زفرة طويلة:

ـ لستُ أدري أيُّ صورة من صور حياتي أحكي لكَ عنها، هل صورة الطفلة ابنة العاشرة التى فقدَتْ في سنتين متتالتين

الأبَ والأمَّ؛ ولم يكن لها فى الدنيا سوى أختٍ عشرينية أرادت أن تكون لها أبا وأمًا فرفضت الزواج؟ أم صورة هذه الأخت التي خدَمت فى المنازل؛ وباعت الخُضر؛ لتسدَّ رمَقنا ولكنها فشلت فى مواجهة متطلبات الحياة، أم صورة ذلك الخمسينيّ الذي ماتت زوجته؛ فتزوج أختي تحت زعم اعتباري ابنة له؛ لا سيما أنه لم يُنجب، ثم أنجب من أختي ولدا؟ أمْ صورته الذئبية التي يخفيها تحت قناع رجل؟

يُقاطعها الشاب فزِعًا؛ ولكنها لم تكن قادرة على الاستماع إليه؛ فأردَفتْ:

ـ فلمَّا صِرتُ صَبيَّة وفارت أنوثتي، أولاني اهتمامًا مُبَالَغا فيه، أغدَق عليَّ المالَ وأجاب كل طلباتي، فهو تاجر غنِيّ؛ تصورتُه ذلك الرجل الطيب الذي يغمرني بعطفه؛ حتى بدَت لي كل سوءاته، فهمتُ من نظراته كل نواياه، وكلما أغدق عليَّ بكثرة كلما زاد نهمهُ إليَّ بشكل لافِتْ، بدأ يُغازلني فى عدم وجود أختي؛ تظاهرتُ بأنَّني لا أفهم، دعاني للقائه خارج البيت فرفضتُ.

وفي ليلة سوداء لم يطلع لها فَجر، فوجئتُ به أمام سريري لمحتُ فى عينيه ذِئبًا، تملَّكني الذُّعر، لم يُبال بفزعي، مدَّ يده قاصدا تَحسُّس مناطق حسّاسة من جسدي، انزويتُ بعيدا عنه، هددتُه بالصراخ لتحضر أختي، قهْقَهَ قهقهة عالية زادت من رُعبي، قال:

ـ خدَّرتُها ولن تسمَعكِ.

اقترب مِنِّي ثانية، ارتعدَ جسدي، حَمْلقَ فيَّ بنظرةٍ مُخيفة أتذكَّرُها كلما خلوتُ إلى نفسي؛ ثم غادر غرفتي.

لم يقف الأمر عند هذا الحد، صمَّم على أن يَبلغ مأربه هدَّدني صراحة إنْ لم أستجب، سيطردني وأختي وابنها.

فكَّرتُ فى إبلاغها وأن نترك له منزله، ولكني خشيتُ أن يُقنعها أنني التي راودتُه عن نفسه، أو تظُن أنِّي أريدُ خراب بيتها، فكرتُ فى الهرَب ولكن إلى أين أذهب، وإذا هربتُ منه سيتلقفني مَن هو أسوأ، أي رجل لا يريد من أنثي سوى أن يُشبعَ غريزته الحيوانية، ألم تُرِد حين دعوتُكَ للبقاء معي، أن تُشبع غرائزك؟ إنكم كُلُّكم واحد؛ تشربون من خواء ذكورتكم المتوارثة.

تصمتْ قليلاً، يُطبق على المكان كآبة ووُجوم، ظلَّ صامتاً، نظرَتْ إليه فإذا بعينيه قد اتَّسَعتا وعَلا وجهه حزن ظاهر، أومأ إليها فأكملت:

ـ لم أجدُ مناصًا من الاستسلام له، وجدتُ فى الاستسلام كما قال لي "عَيْن العقل" سلَّمتهُ جسدي؛ لأعيش أنا وأختي وولدها، هل عرفتَ بعضًا من أسباب حزني؟

يقاطعها الشاب؛ وقد شعَر بقشعريرة تسري فى جسده :

ـ لا تُكملي، لا تكملي.

تبسَّمت ابتسامة حزينة باهتة وأردفَت تتتساءل :

ـ هل تريد فُصولاً أخرى لقصتي؛ أسوأ مما سمِعتَ من فصولها؟

غادرها محزونًا، وقَضَى ليلته مع شريط هذه الصُّور التي كانت تمر بطيئةً كئيبةً أمام عينيه، قرَّر فى دخيلة نفسه أن يُخبرها فى الصباح رغبته فى الزواج منها.

فى اليوم التالي كان ميعاد عودة الرحلة، ذهب إليها قبل الموعد المحدد للقيام، كانت مُفعَمة بالكآبة، طلبَ منها أن تجلس قليلاً ليتحادثا فى أمر هام، قالت:

ـ ليس الآن، سأتحرك حالا بسيارتي.

ـ إذن نتحدث في السيارة.

أجابت بصوتٍ حاسم :

ـ سأذهب وحدي.

تطوي حافلة الرحلة الطريق، وعند نقطة ما تتوقف، زحامُ شديد، مسافرون على الطريق من الجانبين يتوقفون ويهرعون صوَْبَ الزِّحام، يفتح ركاب الحافلة النوافذ، تجحَظ عيناه، ترتعد فرائصه، سيارة يعرفها جيدا مُهشَّمةً تمامًا، وإلى جوارها جثة وسط بركة من الدماء.

ثلاث خطابات

لم يشعر بها أحد وهي تدخل القاعة، الحضور يتابعون بإصغاء شديد، سبقَها عطرها، نبَّه المُحاضر من فوضَى عمَّت المقاعد التى تُحيط بمقعدها.

تتوجه إلى الصف الأول، تشرئبُّ الأعناق تُتابع خُطواتها، لم تَعبَأ بالعيون الفاحصة التي تلفُّها، قصَدَت المقعد المقرَّر لها؛ والذي تَصادفَ أن يكون إلى جِواري، تلفتَّت لضبط المقعد، على استحياءٍ رمقتُها بلحظي، التقت مِنَّا العيونُ دون إرادة، أحسَسْتُ بإحساس غريبٍ؛ كأنِّي أعرفها من زمن.

انتهَت الندوة وانتحيتُ جانبًا، لستُ أدري لماذا قرَّرْتُ انتظارها، الحاضرون يغادرون تِباعًا وهي لم تُغادر، إنها في انتظاري.

هَمَمْتُ أن أكلِّمها، ولكني تراجَعْتُ، مَن قال إنها فى انتظاري، إنها تُهملني، هَمَمْتُ بالخروج ولما اعترَضَتْ طريقي عرَضًا، ما كان مِنِّي إلا أن أسألها:

ـ هل تنتظرين أحداً؟

قالت وابتسامة عطرة قد ارتسَمَتْ على شفتيها، وأريج عطرها يفوح:

ـ نعم .. أنتظرُك!

تَورية

كنتُ أستجمعُ رحيق حروفي ورقَّتها؛ وأصوغُ مشاعري حبَّات لؤلؤ؛ ثم أركضُ لأعرضَ عليها قصائدي.

لم أدر لماذا لم أقُل لها "أُحبك" كان هذا يشغلني لعدَّة سنواتٍ مضَتْ، هل لشيوع الكلمة وكثرة استهلاكها؟ هل لتداولها في الطُّرقات؛ وفي الحانات؛ وفي المجالس؟ وفي المقاهي؛ وفي المدارس؟ هل لأنها فى حدِّ ذاتها لا تحمل جُلّ ما يجيش بصدورنا؟ لستُ أدري، فكأنِّي بدون أسبابٍ لا أحب الكلمة ذاتها، أعترفُ لا شك بغموضي معها.

طوال الوقت لم يَبدُ أنها فهمَتْ ما أقصدُ إليه، ولكنها كانت تُبدي فرَحًا غير عاديّ بما أكتبهُ فى البدايات، تُناقشه تُحلِّله، تتذوقه، تتهلَّل له، تتلوه وكأنها تَتغنَّى، تُلقيه وكأنها تنشد، وكأني بما كتبْتُ ألتقي لأول مرَّة حين أسمعهُ منها.

كانت تُسْدلُ رموشها حاجزًا بيننا؛ ولا تنبسُ بحرف بَعدها، وكنتُ أشعرُ حينئذٍ أنَّ روحي غادرتني؛ إلى أين؛ لستُ أدري.

استَجْمَعْتُ شتاتَ جُرأتي، وتظاهرتُ بعدم الفهم وسألتُها مُتوجِّسًا:

ـ ألا تسألينني ولو لمَرَّةٍ واحدة؛ ماذا تعني قصائدي؟

تبسَّمَتْ وتدلَّلَتْ؛ قالت ترمقُني بابتسامة مِلء عينيها:

ـ ولماذا أسألُكَ؛ وهي فى كل حرفٍ تكتبهُ ظاهرة؟

مثَّلْتُ غيابَ الفَهم مرةً أخرى؛ كنتُ مُحتاجًا لأنْ أسمعها صريحةً كي أصدِّق نفسي، قلتُ مُتصنِّعًا:

ـ ما هي؟

قالت:

ـ أُحبك.

ضرَبتني الكلمة كأمطار صيفٍ فى يوم قائظ، استزدتُها: قُلتُ:

ـ ماذا؟

قالت وابتسامتها كادت أنْ تَغيب:

ـ قلتُ لكَ يا سيدي "أحبك" ألا تسمع جيدًا؟

لم أصدِّقُ، أأحلمُ؟ أمْ أنَّ ما أسمعهُ حقيقةً؟ كرَّرتُ السؤالَ جادًّا فى هذه المرة:

ـ ولماذا لم تقوليها وقد كُنتُ في انتظارها؟

عادت عيناها تلمعان كنجمتين، ابتسَمَتْ، كان كلُّها يبتسم همسَتْ موسيقى العِشق:

ـ أحبك .. ألا تفهم التَّورية.

دُنيا

استعْصَى عليه استيعاب مَوت زوجته، لم يُصدِّق الرَّجُل السِّتينيّ أنه سيعُودَ إلى البيْت ولا يجدها فيه، عاش كابوسًا لم ينته إلا وكانت إلى جواره.

انتهَى العَزاءُ وجُمِعَ السُّرادق، بقِيَ جالسًا لا يريد أن يُغادر مكانه، قضَى ليلتهُ فى بَيْت ابنه الوحيد وبين أحفاده؛ رفضَ اقتراح ابنه بأن يَبقَى معه، قال: إنه سيعود إلى بيْتهِ؛ كان واهمًا أنَّه سيستمر في كابوسه، ولن يتزوج بعدها أبدا، سيكفيه طيفها، وإن كانت الخادمة ستقوم بأعباء البيت.

صمتٌ مُوحِشٌ يلفُّ البَيْت، يَقْطعهُ أحيانًا ثورته في الخادمة كما اعتاد طوال حياته، تَكنُسُ وتُنظِّف وتطبُخ فى صمْت؛ ومَهْما عَنَّفها لا تعترض، فليس لها من مأوَى إلا بيْته، أربعينيةٌ كفَلها بعد أن تسلمها من إحدى دور رعاية الأيتام في السنوات العشر الأولى من زواجه قبل أن يُرزق بولده، وكانت زوجتها تعتبرها ابنتها وتهتم بها وتحبها، قرر في داخله أن تستمر معه وفاء لزوجته، وكانت هي تتحمل ثورته بمناسبة وبغير مناسبة ربما من ذات المنطلق.

شهور قلائل انقضت لم تبدِّد مَللَهُ، صارت الأيام تُشبه بعضها، ما يُصبح فيه يتكرَّر ليُمْسي فيه، حتى تجارته فى حانوته صارت تُشعرُه بالملَل ولا تملأ فراغًا يلازمه.

يصحو من نومه فى القيلولة متوتِّرًا، يجوبُ البيْتَ لا لشيء إلا ليُبدِّد هذا التَّوتُّر، يلمَحُها تُنظِّف بقميصٍ خفيفٍ يكشف عن ساقين مُثيريْن، وصدرٍ نافِرٍ يتأرجَحْ.

لم يُصدِّق ما رأى، وقفَ مبْهوتًا يُسائل نفسه:

ـ هل هذه هي دُنيا؟ هذه هي التى كفلتها طفلة منذ أربعين سنة؟ والتي كانت تلبس ذات الملابس؛ ولم تضف جديدا لهيئتها؟ كيف لم أرَ هذه الأنوثة الفوَّارة هذه من قَبْل؟

صراعُ مُباغتٌ يضربُ رأسه، ذِكرَى زوجته، كِبرُ سِنِّه، جسدُها المثير، سِحْرُ حيائها؛ حين أطرَقَتْ وهو يتفرَّسُ إلى جسَدها.

أرْبَكَتْها النظرة، احمرَّ وجهها، ليكتشفَ ذلك البياض الذى أبدتْهُ تلك الحُمرة، يقاوم نظراته، ينهرُها لارتدائها هذه الملابس، تُجيبه بأنها تلك التى اعتادَتْ من قبلُ أن تلبسَها.

قاوَمَ ما تحرَّكَ في نفسه بتلكَ الغَضْبَةِ المُفتعَلة؛ وعاد إلى غرفته يشْعرُ أنَّ البَيْتَ صار صحراءً مُوحِشة.

انكفَأَ على نفسهِ يُسائلُها، ألا يجب أنْ أتزوَّج لتؤانسَني امرأة أخرى فى وحدتي هذه؟ هل يدري أحدٌ كم بَقِيَ من العُمْر حتى أقضيهِ وحيدًا هكذا؟ حتى ابْني الوحيد مشغولٌ بأبنائه؛ فهل من الطبيعي أنْ تستمر الحياة على هذه الصورة؟

راوَدتْهُ تلك التساؤلات وأصبح قاب قوسين أو أدنى من الاقتناع بفكرة الزواج مرَّة أخرى، ولكن سرعان ما عاد ليُحدث نفسه بما يَطرد هذه الفكرة المجنونة من رأسه:

ـ كيف أقترن بزوجة فى نهاية عُمري؟ لا .. لا .. لن يكون ذلك.

لاحظ أن دنيا زادت من عنايتها به، فوجئ باقتراحها أن تنتقل من غرفتها الملحقة بالحديقة والتي يفتح بابها على المطبخ؛ لتكون إلى جواره في إحدى غرف البيت حتى إذا ما احتاج أمرًا ليلاً تكون في خدمته، اسْتسَحن الفكرة ووافقها عليها.

ولكنَّ تغييرًا مفاجئًا في نَمط حياتها بدا واضحا له، اهتمَّت بزينتها على نحو أكثر من ذي قبل، حسَّنت من

هِندامها لم تعد تقضي يومها وليلها بجلباب واحد كما كانت عليه سيرتها الأولى في حياة زوجته، وبدأت تظهر رائحة أنوثتها، شغَلهُ الأمر، يُسائل نفسه: هل ملاحظتي في مَحلِّها، أم أنِّي لا أتذكَّر كيف كانت طبيعتها فيما مضى؟ أم أنَّ أنوثتها التي بدَتْ لي على حين غفلة تُوهمني بما أظنه تغييرًا في سلوكها وهيئتها؟

لم يَستَيقظ من نومه فى اليوم التالي لمنظرها الذي قلَب موازين تفكيره مبكرًا كعادته، نادَتْهُ دنيا فلم يُجِبْ، ظنَّتهُ خرج مُبكرًا من البيت من دون أن ترَه، خلعَت جلبابها وبقيَتْ بقميصها الشفَّف وبدأتْ أشغالها، حان الدَّوْر على غرفته، دخلَتْ؛ فإذا به مُسْتلقٍ على ظهره شاردًا؛ ينظرُ فى السَّقف إلى لا شيء.

فُوجئ بها أمامه، صدرُها النَّافر مرَّة أخرى كأنه يُطارده، كان يَهتزُّ مع خُطواتها حين استدارَتْ لتُغادر الغرفة، بياضُ جَسدها الذي لم يلْحظهُ من قَبْل، ذراعيها البضَّتين، ساقيها الملفوفتين، خِصرُها اليى لم يَبْدُ له إلا هذه اللحظة، أنوثتها الفائرة كأنها في العشرين من عمرها.

شعرَ بحُمَّى الشَّوق تعصِفُ رأسه، رَعشةٌ ضرَبَتْ جسدهُ كأنَّ تيارًا كهربائيًا مسَّهُ على حين غرَّة، هَبَّ من سريره واقفًا، شَهقَ كأنَّ غُصَّةً تقِفُ في حَلْقة، راحَتْ عيناهُ في رحلةٍ عَبْرَ دهاليز وتضاريس جِسمها.

ناداها آمرًا لتقفَ في مكانها، تَسمَّرتْ، راحت تُلمْلمُ ما يُمكن جَمعهُ من أطراف القميص دون جدوَى، كلما جذبَتْ منه جزءًا لتَسْترَ به مَوضِعًا؛ كشَفَتْ عن غيره أكثرَ إثارة.

حاولَ مقاومة هذه الصورة المثيرة، ولكنَّ صدرها وحْدهُ صرَع كل سُبُل المقاومة، طغت أنوثتها وسِحر حيائها على المكان كله، فقدَ السيطرةَ على عقله، جائعًا وجد لحمًا مُضيئًا يشِعُّ من تحت تلك الملابس الشفافة.

كالمَحْموم دعاها إلى فِراشِه، بدلال تبسَّمَت، لم تتحرَّك من مكانها ، بسط إليها يدَاهُ لتقتربْ، اتَّسَعتْ ابسامتها، اقترب، جَلسَتْ القُرْفصاء، ضمَّتْ ساقيها بذراعيها، بَرز نهْدَاها على نحو أوضَح، غاب عقله، اقترب أكثر، أمسكَ بيدها ليوقفها، أطرقَتْ، ضغَطتْ بأسنانها على شَفتها، احتضَنها، قهقهتْ، خطوتين وكان فوق السرير كما أراد.

بين أحضانه تُؤدِّي ما كان مَطلوبًا كما ينبغي؛ تتسلَّلُ في هدوء، تُغادر لاستكمال أعمالها.

يَشرد ليُحدِّث نفسه:

ـ أهذه دنيا؟ أين كانت طوال ذاك العُمر الذي مَضى؟

يَفيق من شروده، زائغ النَّظرات يَمسح بيده على شاربه، يُناديها بصوت يَتهلَّل، تحضُر على الفور، يتفرَّسُها من جديد وهو يبتسم، ترمُقه بلحظها وتضحك ضحكة خافتة، يُقرِّرُ أمرًا:

ـ دُنيا.

تُجيب مُتدلِّلة:

ـ نعم

سيَحضُر المأذون في المساء لأتزوجك.

يتجهَّم وجهُها، تصيح غاضبة وهي تُغادر:

ـ لا!

لحظة انهيار

أسْرعَ إليها حيثُ تجلسُ بين الماء والسَّماء؛ شاردةً زائغة النَّظرَات، لم تَشعُر به إلا وهو يُكلِّمها، جمَع كل ما لديه من رقَّة وبثَّهُ إليها فى تحيَّة، لم تلتفِتْ إليه، وجْهُها بعيدٌ وفِكْرُها ربما فى قارَّة أخرى.

رمَقْتهُ بنظرةٍ سريعةٍ عابرة وعادت إلى شُرودها، أيْقَنَ من حالتها هذه أنها صَيْدٌ صعب المنال.

أعادَ التَّحيةَ وبدأ الثَّرثرة وهي صامتة لا تُجيب، ملَّت ما يَرغي فيه، فجأةً وبحركةٍ أرْبكتْه وسؤالٍ مُقتحِم، تسأله دون أنْ تُواجهه:

ـ ماذا تريد؟

أجابها:

ـ الحديثُ معكِ؛ والتَّعرُّف إليكِ.

بسُخرية تَقْطرُ من حروفٍ مَريرَةٍ تسأله مرَّة أخرى:

ـ أهذا فقط؟

أَلْقَى بِنرْد حَظِّهِ مُراهنًا نفسهُ على المكسَب:

ـ أريدُكِ أنتِ!

كان جَوابهُ صادمًا، ذكَّرَها بما حدثَ منذ سُوَيْعاتٍ قليلة، فكرةٌ مجنونة ضربَتْ رأسها.

كانت لم تزَل تشيحُ عنه بوجهها فى الاتجاه الآخر، استدارَتْ إليه، وبجوابٍ غريب فاجأتهُ:

ـ أين؟

تَعجَّبَ من ردٍّ مُباغتٍ لم يكن يتوقَّعه، تَجمَّد في مكانه، بَدا له أنه واهِمٌ فيما تناهَى إلى سمعِه.

أحسَّ أنَّ الدَّمَ تَصاعدَ في وجهه، وحرارة تسري في جسده، اقتربَ مُتوجِّسًا ظانًّا أنها خُدعة؛ وأنها ستصرخ إذا اقترب.

بصوتٍ يَرتعشُ شهوةً أجابَها:

ـ الشاليه قريبٌ من هُنا.

طافَتْ نَظراتُها في الفَراغ تبحثُ عن مَغْزَى لهذا الهُراء، وأومأَتْ برأسها مُوافِقة.

حذِرًا مَدَّ يده ليُمسِكَ بيدها، سلَّمَتْها له، سارَت معه كأنها مُنوَّمَة، كانت تَشعُر بخطواتها ثقيلة، وبحبَّات الرِّمال من تحتها تَتحوَّل إلى أشواكٍ مُدبَّبة، وألمٌ يَشِلُّ عقلها.

في البَدء لم تكن جلستُها كافيةً لإظهار مفاتن جسمها، لم يحسَبُها على هذه الدرجة من الأنوثة، وجْهٌ جميل القَسَمات، جسدٌ مُسْتوٍ، صَدرٌ بارز، ورمشٌ يكاد يطول خدودها، صار في داخله ذئبٌ جائعٌ أمام فريسةٍ سهلة لا تُقاوِم.

تذكَّر حين رآها وأشعة الفجر البِكر تتناثر عليها؛ حين لمحها عن بُعدٍ بين صخرتين على شاطيء البحر ضائعة بين بقايا الظلام المُنسحب، ومضَ بياضها؛ فانعكس على مرآة عينيه وهو جالس في شرفته؛ ليُثير فيه رغبة جامحة، لم يعتد من نفسه هذا الاندفاع؛ ولكنه حين رآها على هذه الصورة هُرع إليها يدفعهُ سِحرٌ خَفيّ.

واجمةً في لحظةِ انهيارٍ أعطتْهُ ما أرادَ بلا مُقابل، أسْلَمَتْ له جسَدها ولم تُعرْهُ اهتمامًا، كانت بين الحين والآخر تنظرُ في ساعة يدها وهو مَشغولٌ بأمره.

عَبثًا حاول استِنفار إحساسها وكيانها دون جَدوى، كانت بلا روح، بلا حِراكْ، لم يَشعُر لها بوجود في المكان ولا في الزمان، كأنه يتعامل مع دُمية.

انتهَى الأمرُ بسهولةٍ وبساطةٍ وسُرعة، نظرَ إليها مُتعجبًا، أشاحَتْ بوجهها، صَمتٌ مَهيبٌ سَيطر على المشهد.

استرَق إليها بعض النظراتٍ وهي مُطرقة في ذهولها، أبصرَ دَمعًا يترقرق في عينيها، ساوَرهُ سؤالٌ لا مَحَلَّ له، ولكنه ألْقَى به عليها:

ـ لماذا وافَقْتِ؟

كان سؤالهُ غريبًا وقد حصَل منها على ما ابتغَى، فما جَدْوَى "لماذا" هذه؟

رمَقَتهُ بنظرةٍ حادةٍ ؛وأجابَت بصوتٍ محزون:

ـ ما شأنُكَ وقد سرَقْتَ ما أردْت؟

كان يَعلَم أنها ليسَتْ بائعة هوَى، لم يكُن غِرِّيرًا لا يستطيع التفرقة بين امرأةٍ وأخرى، يُصرُّ على السؤال:

ـ لماذا؟

لم تُجِبْ، شردَت لتتذكَر قصة فيلم أجنبيٍّ شاهدَتهُ في صِباها ولم تنسَ أحداثه، حدَّث البطل زوجته في أمر مَيله إلى أخرى، لم تنزعج، ولم تُعنِّفه واتَّفَقت معه على انسحابها من حياته في هدوء، ثم امْتثل أمام ناظريها تاريخ زِيجتها التقليدية التي كانت ترفُضُها، رآها، تَقدَّم لِخطبتها، وافَقَ والدُها؛ لم يَشْغلهُ أنَّ هذا الزَّوج المُرتَقبْ باع أخرى كان يخطُبها حين رأى جمال ابنته، وصورة حياةٍ رتيبةٍ مُمَّلةٍ لا رُوح فيها، وخِياناتٍ سمِعَتْ بها؛ وعَلاقاتٍ بأخرياتٍ؛ كانت تُصدِّقُها حينًا وتكذِّبُها فى أحيانٍ كثيرة، إلى أنْ كان ما حدَث منذ ساعات قليلة؛ قبل أن تلجأ إلى البحر، كانت في مناسبة زفافٍ عائليّ أصرَّ على أنْ تذهبَ إليه وحدها؛ مُتعلِّلا بانشغاله، عادَتْ مُبكرًا لصُدَاع ضرَب رأسَها؛ لتجد الخادمة بين أحضانه على فراشها يمارسان الرَّذيلة.

تذكَّرَتْ كل ذلك، أجهشَت بالبكاء، عادت إلى مُحدِّثها، نَظَرت إليه باحتقار، أجابَتهُ:

ـ تريد أن تعرف لماذا؟ لأنه لو لم يَكُنْ أنتَ؛ لكانَ غيرُكَ؟

وغادَرتْ تجرُّ أذيال انهيارها.

المؤلف في سطور

- عُضو اتحاد كُتَّاب مصر.
- عمِلَ وكيلاً للنائب العام في أريافِ مصر في منتصف الثمانينيات
- ثم قاضيًا بمحكمة الإسكندرية الإبتدائية.
- ثم رئيسًا لنيابة كفر الشيخ الكلية.
- ثم مستشارًا .. فرئيسًا في محاكم جنايات بني سويف .. طنطا العريش .. الإسكندرية .. الإسكندرية الإقتصادية .. وكفر الشيخ.
- مُحاضِر بكلية الحقوق جامعة الإسكندرية.
- صدَر له مجموعات قصصية / "يوميات وكيل نيابة" "يوميات قاضٍ" .. "برجولا" .. حكايات قضائية .. ولحظة انهيار.
- وسَرْد شاعري : "الحب بعد المداولة" و "من فيض الخاطر" نشر وتوزيع منشأة المعارف ومركز ليفانت للدراسات الثقافية والنشر بالإسكندرية.

الفهرس

- لنقرأ ما فات ٩
- بَوح ١٥
- أنوثة بائسة ٢٥
- ذكورية امرأة ٢٩
- روب وجلباب ٣٣
- اختبار ٣٧
- لحظة يقين ٤١
- إمتداد ٤٥
- هنادى ٤٧
- حيرة أمل ٥٧
- بقايا معركة ٦٥
- ثلاث خطابات ٧٥
- تورية ٧٧

▪ دُنيا ٨١
▪ لحظة انهيار ٨٧
المؤلف فى سطور ٩٣
الفهرس ٩٥

تمَّ بحمد الله وفضله